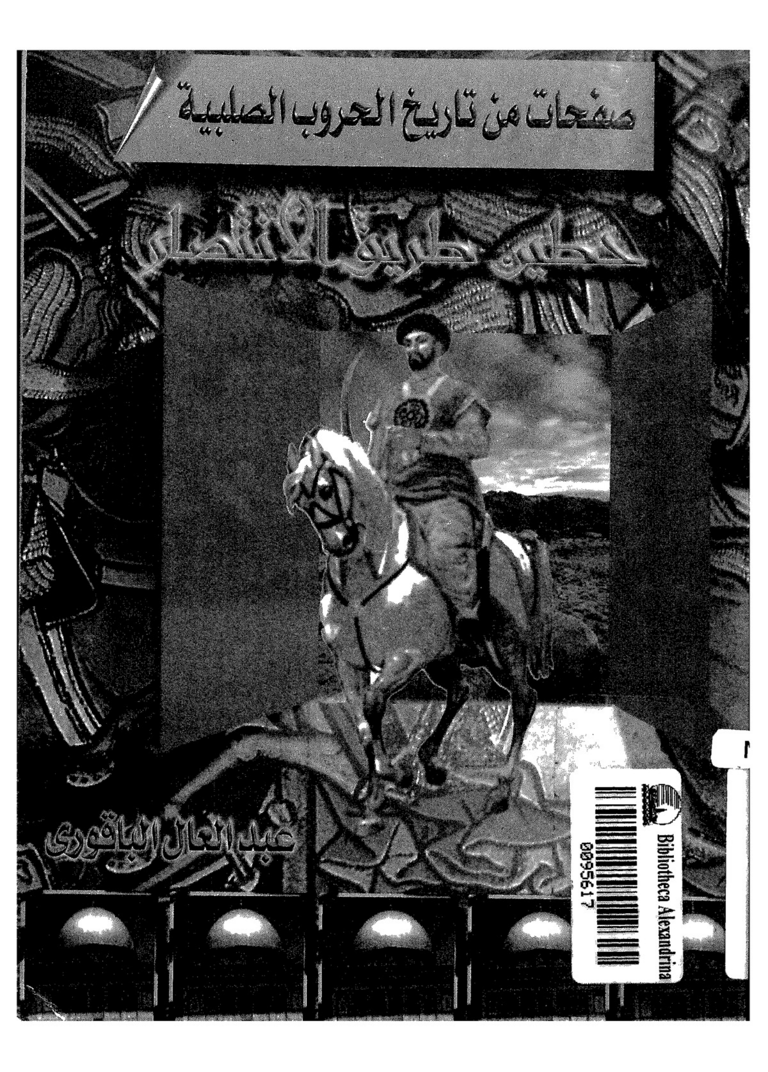

صفحات من تاريخ الحروب الصليبية
حطين طريق الانتصار
عبد العال الباقوري

صفحات من تاريخ الحروب الصليبية

حطين طريق الانتصار

صفحات من تاريخ الحروب الصليبية

"الجزء الرابع"

حطين طريق الانتصار

المؤلف

عبد العال الباقورى

التجهيزات الفنية

دار الهدى

الطبعة الأولى

1998



دار الهدى للنشر والتوزيع

6 ش المجرى – شاهين – المنيا

ت 346713 / 086

رقم الإيـــداع: 98/5629

الترقيم الدولى: 2 - 09 - 5822 - 977

الحروب الصليبية. لماذا ؟

فى سبتمبر (أيلول) 1967، عام الهزيمة العربية الكبيرة، احتفل الصهاينة بمرور سبعين عاماً على المؤتمر الصهيونى الأول، الذى عقد فى مدينة "بال" السويسرية عام 1897. وعقد الحفل التذكارى فى نفس القاعة التى شهدت انعقاد المؤتمر الصهيونى الأول.

ودعى الجنرال اسحق رابين ــ قائد عدوان 1967 ورئيس وزراء إسرائيل فيما بعد ــ دعى إلى الحديث فى هذا الحفل التذكارى.

أثار رابين دهشة الحاضرين عندما قال قرب نهاية خطابه:

"إن أعظم خطر يهدد إسرائيل هو انكماش الهجرة إليها تماماً كما تدهورت دولة الصليبيين عندما افتقرت إلى دماء جديدة".

إن "نهاية" الحروب الصليبية تمثل للصهيونية "مستقبلها"، وهى ــ على ألسنة كثير من مفكريها ــ تتوقع هذا، وتحاول أن تتجنبه.

لا يعنى هذا أن "الدولةَ الصُهيونيةَ" صُورةٌ طبق الأصلِ من "المملكة الصليبية" التى قامت فى نفس المكان فى العصور الوسطى، وبَقِيتْ حوالى قرنين.

ولكن أوجه التشابهِ كثيرة.. وأوجه الخلاف أيضاً. فهناك ظروف مختلفة ومتغيرة، وفرق كبير بين ظروف وأوضاع عالم القرون الوسطى وبين ظروف وأوضاع عالم النصف الثانى من القرن العشرين.

ومع ذلك، يقارن الكاتب الصُهيوني يورى افنيرى بين البابا "أيربان الثانى" حامل لواء الدعوة إلى الحروب الصليبية، و"هيرتزل" حامل لواء الدعوة الصُهيونيةِ وإنشاء "الدولة العِبْرِيةِ"، كما يقارن بين "مؤتمر بال" و"مجمع كليرمونت" الذى انطلقت منه شرارة الحروب الصليبية، وبين بن جوريون أول رئيس وزراء لإسرائيل و"بالدوين الأول" أول ملك لمملكة بيت المقدس الصليبية.

ويقول هذا الكاتب الصهيونى: إن أوجه التَشابه عَديدةٌ.. ثم يحاول أن يؤكّدَ أن أوجه الاختلاف بين الدولة العِبرِيةِ والدولة الصليبية كثيرة وعميقةٌ. وكأنه يحاول أن يقول أن إسرائيل يمكن ألا تلقى مصير الدولة الصليبية نفسه.

ومرةٌ أخرى، وليست أخيرة: إن المُقارنةَ الآلية بين الماضى والحاضر غير صحيحة، والتاريخ لا يكرر نفسه بشكل آلىٍّ أو غبىٍّ.

ومع ذلك، يَعترفُ افنيرى:

"لقد حَكَمتْ مملكة الصليبيين فى القُدسِ على نفسها بالدمار، عندما اعتمدت كُليةً على تنظيمها العسكرى المُتفُوق وشجاعتها. إن العمليات العسكرية الباهرة التى حَملتْ الصليبيين إلى قلب مصر تُخفى وراءها المشاكل الحقيقية التى حددتْ مَصيرَهم فى النهاية. هذه المشاكل مازالت قائمةً اليوم بالنسبة لإسرائيل..".

ماذا يعنى هذا ؟

يعنى أن قراءة الحروب الصليبية بِدقَةٍ عملية مفيدة فى هذا الوقت بالذات، إنها تُساعدُ فى إحياء الأمل الكامن والعظيم، كما تساعدُ فى

اقتلاع جذور اليأس الثّقيلِ.

إن انقسامات وخلافات "العرب" اليوم ـ وأمس القريب ـ فى مُواجَهةِ إسرائيل أقلُّ حِدة بكثيرٍ جداً من انقسامات وخلافات العربِ ـ المسلمين ـ فى مواجهة العدوان الأوربىِّ الذى وصِفَ بالصليبىِّ.

يقول المؤرخ العظيم ستفين رنسيمان:

"إن سياسات العالم الإسلامىِّ فى أوائل القرن الثانى عشر كانت بَعيدةً عن أى تفكير سليم".

دخل الصليبيون القُدسَ فى 1099.. وحتى1143 كانوا يُحاولون تثبيت دعائم دولتهم. وانقسام العالم الإسلامىِّ أتاح للصليبيين الاستقرار فى المنطقة التى استعمروها.. ولم ينجح الصليبيون بسبب قوتهم، ولكن بسبب ضعف القُوَى الإسلامية، وتفكُّكِها وانقسامها، وانشغالها بالحروب ضِدَّ بعضها البعض.

ولو أن المسلمين فى منطقة "الشرق الأوسط".. أو على الأقل فى العراق والشام ومصر، أقاموا جَبهةً مُتحدةً، لنجحوا فى القضاء على الجماعات الصليبية فى بلاد الشام، وتطهير الوطن العربى منها قبل أن تقوى وتَتدعَّمَ.

فى ذلك الوقت، وعندما جاء الصليبيون كانت بلاد الشام تَعومُ فى بَحرٍ من الفَوضَى.

كان الخلاف عَميقاً بين دولة السلاجقة التى تحكم إيران والعراق وتركيا، وهى دولة "سنية"، وبين الفاطميين حكام مصر وهم "شِيعَةٌ".

وكانت هناك حروب بين السلاجقة وبعضهم.. كانت اتجاهاتهم مُتَنافرةً، وأهدافهم مُتضَاربة، ومواردهم المالية مبددة.

وكانت "الخلافة العباسية" في لحظات الاحتضار، اسماً بدون مُسمَّى.. ومجرد شكل.

وفي مصر، احتفظ الفاطميون بجيشهم داخل البلاد.. وأحياناً بعثوا بقوَّاتٍ قَليلةٍ. ولم يُعبِّئوا قوة البلاد، رَغم أنه لم تكن تَنقصُهم الإمكانيات.

أكثر من هذا، حاول الفاطميون أن يتحالفوا مع الصليبيين ضِدَّ السلاجقة، على أمل أن يمنع ذلك الصليبيين من الزَحْفِ على الأملاك الفاطمية في الشام.

وبدورهم، حاول الصليبيون استغلال هذا الانقسام العَربيِّ ـ الإسلاميِّ والاستفادة منه.. فتحالفوا مع بعض الأمراء، وعملوا على عَزلِ الشام، وعملوا لإبعاد القاهرة عن دمشق.

واحتاج العالم العَربيُّ ـ الإسلاميُّ إلى حوالى خمسين سنة كي يفيق، ويتّحِدَ، ويُعبِّئَ قوتَه، ويتقدَّمَ لتحرير أرضه.

وفي عام 1144 أسقط عماد الدين زنكى إمارة "الرَّها" الصليبية التي كانت تفصل بين الشام والعراق.. وكانت هذه بِدايةَ النهاية، جاء نور الدين محمود ليوَجِّهَ نظره من دمشق إلى القاهرة، حيث كان الحُكْمُ الفاطميُّ يدخل مرحلة الاحتضار.

وحينما حاول الوزير الفاطميُّ شاور أن يتحالف مع الصليبيين لكي يستعيد كُرسيَّ الوزارة ويحافظ عليه، كان يَفتحُ أبواب القاهرة أمام صلاح

الدين، الذى حمل من القاهرة اللـواء العربىَّ ـ الإسلامىَّ لتحرير القدس.. كانت هذه بداية التحرير.. مجرد بداية فقط على طَريقٍ امتدَّ طويلاً.. ووضع نِهايةً لواحدةٍ من أهمِّ الحروب فى تاريخ البشرية بصفةٍ عامةٍ، وفى تاريخ العصور الوسطى بصفة خاصة.

وقد استغرقت الحروب الصليبية حوالى قرنين، وتَضَمنتْ عِدةَ حَملاتٍ اتَّفقَ المؤرخون على حصرها فى ثمانى حَملاتٍ، مع أن عددها أكثر من هذا.

وعلى أىِّ حَالٍ، لقد نَجحَ العرب ـ المسلمون فى القضاء على المملكة الصليبية وتحرير الأرض العربية، لأنهم لم يتركوا هذه الدولة تَعيشُ يوماً واحداً فى سَلامٍ حَقيقىٍّ.. وخاضت ثمانية أجيالٍ مُتتاليةٍ معارك لم تَنقطعْ ولم تَتوقَّفْ، ولم يعرف الصليبيون ـ والكلام هنا لافنيرى الصُهيونى ـ طوال مائةٍ واثنين وتسعين عاماً يوماً واحداً من السلام الحَقيقىِّ، رغم ما كان هناك من اتفاقيات هُدنةٍ وإيقاف إطلاق نار (وهذه الحالة تنطبق تماماً على إسرائيل)".. ورغم ما كان هناك من ضعفٍ وخيانةٍ من جانب بعض الحكام العرب ـ المسلمين أمثال معين الدين أنر و شاور وغيرهما.. "وهؤلاء سنقرأ حكاياتهم ونَتتبَّعُ أعمالهم فى الاستعانة بالعَدوِّ، والتحالف معه ضِدَّ إخوانهم العرب المسلمين.)

كما سنقرأ ونَتتبَّعُ صَفحاتٍ أخرى.. صفحات مجد وبطولة سَجَّلَها مُناضلون عرب آمنوا ـ كصلاح الدين الأيوبى ـ بدور العمل العَربىِّ المُشتركِ.. ونقرأ أيضا نِضالَ الجماهير العادية البَسيطةِ دِفاعاً عن أوطانها ومُقدساتِها، فقد انقلبت الجَمَاهيرُ ضِدَّ شاور حينما اكتشفت خيانته،

وذهبت إلى الخليفة العَباسىِّ تدعوه إلى النضال يوم رأته مُتقاعساً، وكانت هى التى دَفَعتْ تكاليف الحرب التى استمرَّتْ قرنين.

والحروب الصليبية قصةٌ طويلةٌ، إنها قصة قرنين كاملين وأكثر، وهى مَليئةٌ بالأحداث والشخصيات والوقائع والمعارك.

وفى كل حدث، ووراء كل شخصية.. درس وعبرة.

ولن نستطيع هنا أن نَتتبَّعَ كل هذا، ونَرويه.

ولكن نكتفى من القِلادةِ بما يحيط بالعنق: فنَتتبَّعُ الأحداث والوقائع والشخصيات التى تؤكِّدُ لنا حقيقة أن قوة العرب فى وحدتهم.. وأن ضعفهم من انقسامهم.

هذه عِبرةُ الماضى..

وخِبرةُ الحاضر..

ودرس المستقبل.. الذى أثق أن الناشئة العربية ستعيه جيدا.. وتتعلمه، وتطبقه.. فتُحقِّقُ النصر، اليوم، أو غدا، وبالتأكيد بعد غدا.. وليس غد ببَعيدٍ.

✠ ✞ ✠

"ينبغى اعتبار صلاح الدين من جميع الوجوه، أعظم الأبطال الذين حاربوا الصليبيين بمن فيهم بيبرس أحد المماليك، مع العلم أنه ظهر على المسرح فى الطور الثالث من الحملات التى شنها المسلمون، إن تفوقه ونبله كرجل وكبطل، سواء أكان فى الحرب أم فى السلم، أمر يشهد له به الأصدقاء والأعداء، لقد عفى النسيان ذكرى عدد كبير من أبطال المسلمين، ولوث البحث التاريخى الهالة التى كانت تجلل هامات أبطال آخرين، ولكن الزمن والبحث التاريخى قد أضفى على ذكرى صلاح الدين شرفاً على شرف ونبلاً على نبل"

فيليب حتى

معركة مستمرة

فى الحرب ضد الفرنجة، التى شاعت فى العصر الحديث تسميتها بالحروب الصليبية، كانت المعارك متواصلة لدرجة أنها تبدو كمعركة واحدة من عدة جولات، استمرت أكثر من قرنين من الزمان، وكانت كل جولة تَستكمل جولة سبقت، وتفتح الباب لأخرى تالية وبين الجولات، كانت هناك وقفات ومحاولات صُلح، ومفاوضات وهدنات قصيرة أحيانا وطويلة أحيانا أخرى، ولكن هذا كله لم يُغير بل لم يمس الهدف العربى - الإسلامى الأسمى فى ذلك الوقت، وهو هدف تحرير القدس وطرد الغاصبين من قلب الأرض العربية. هذا هدف لم يساوم عليه قائد عربى- إسلامى ممن تصدوا لحمل راية القتال والجهاد، ربما تنازل هذا القائد أو ذاك، ربما تراجع أو ساوم. ولكنه لم يستسلم. ولم يفرط، ولم يعترف بأن للفرنجة حقا فى هذه الأرض.

◎ ورحل نور الدين

ومن المعتاد أن يتحدث المؤرخون عن عماد الدين زنكى وابنه نور الدين و "خليفتهما" صلاح الدين الأيوبى وكأنهم حلقة واحدة أو حلقة متكاملة الأجزاء، وهذا صحيح، لكن الصحيح أيضا أن صلاح الدين كان أكثر الثلاثة تعبيراً عن الحق العربى - الإسلامى فى الأرض التى اغتصبها الفرنجة، حتى قال فى إحدى رسائله إلى أحد الملوك الذين فاوضهم: "هذه أرضنا وهى ليست لكم".

هذا الوضوح في الرؤية والموقف هو الذى جعل صلاح الدين يستميت دفاعاً عن الحق، ويستبسل جهاداً من أجل استرداد الأرض، وفي سبيل طرد الغاصبين منها. وقد خلف عصر صلاح الدين لنا فيما خلفه، مجموعة كبيرة من الرسائل التى تسجل بوضوح وبأجلى عبارة رؤيته لهذه الحرب، ولأهدافها، وإيمانه بأن النصر سيكون في جانبه. وصلاح الدين في هذا لم يبدأ من فراغ. فقد توفي نور الدين محمود في 1174 بعد سنوات نضال وكفاح ضد الفرنجة المعتدين. وخلال هذه السنوات تمكن من وضع الأسس والقواعد لاستمرار المقاومة العربية- الإسلامية على طريق تحرير القدس. وعند رحيله، دانت السلطة في مصر لصلاح الدين، خاصة بعد أن تمكن من القضاء على العناصر المعادية له، ولكن السيطرة على مقاليد الحكم في مصر لم تكن تمثل لصلاح الدين سوى وسيلة لاستكمال رسالة سلفيه الكبيرين، لمواصلة المعركة قتالا وجهادا ضد الفرنجة.

كانت السنوات من 1174 إلى 1186 سنوات عصيبة في حياة صلاح الدين، عَمَرت بالأمجاد لكنها في الوقت نفسه لم تخل من النكسات والانكسارات والهزائم. وهذا أمر طبيعي فالتاريخ قديمه وحديثه لا يعرف قائداً واحداً دانت له الانتصارات على طول الخط، إن قائداً واحداً دون هزيمة أو هزائم لم تعرفه وقائع التاريخ ولا صفحاته بعد وأغلب الظن أنها لن تعرفه. إن القائد الحقيقي، أى قائد، هو الذى ينهزم وينتصر، بشرط ألا تقعده الهزيمة، بل تدفعه إلى إعادة النظر في أوضاعه، وإلى تصحيح أخطائه، ليعود إلى أرض المعركة وهو أكثر استعدادا لتحقيق الانتصار. وصلاح الدين بطل حطين ومحرر القدس هو نفسه الذى لقى الهزيمة في عكا، وفي عسقلان، وربما كانت الهزيمة عند عسقلان هي التى بدأت الخطوة الأولى على طريق

النصر فى حطين، وقد كان طويلا ووعراً، واستغرق عبوره اثنى عشر عاماً، خلالها كان صلاح الدين يعد ويستعد لمواجهة عدوه وللقضاء على خطره وخلال هذه السنوات شغل ذهنه وسيطر على حياته هدفان متكاملان هما: توحيد مصر والشام والجزيرة، واتخاذ هذا التوحيد نقطة انطلاق لتحقيق الهدف الأسمى، وهو تحرير القدس، وضرب العدو فى مقتل بانتزاع درة الإمارات الفرنجية من يديه، واستعادة مدينة المدائن بعد أن دنسها رجس الاحتلال الفرنجى، الذى إن خرجت القدس من يديه لم يعد لوجوده فى أرضنا قيمة أو معنى. ونجاح صلاح الدين فى تحرير القدس وبطولته فى معاركه يؤكدان أنه ما من قائد حدد هدفه وعقد عزمه على تحقيق هذا الهدف، واستجمع الوسائل والأدوات لتحقيق هذا الهدف إلا ونجح. ولكن حين يتشتت الهدف وتضيع معالمه، أو حين ينتقل القائد من هدف إلى آخر دون تخطيط أو إعداد جيد، فإنه فى الغالب يضل الطريق، والقيادة أو البطولة ليست ضربة حظ. إنها ليست موهبة شخصية خالصة وليست بنت أو نبت الظروف القائمة فقط. إنها فى الواقع تلاق واندماج بين هذين الجانبين معا: جوانب الموهبة الفردية والظروف التى تُهيئ لهذه الموهبة الظهور والبروز والتألق.

◎ المدن والبشر

فى هذا الإطار لا مجال للخوض أو الحديث طويلاً عن تنشئة صلاح الدين وتربيته وخلقه وزهده وورعه وتقواه وعدله. فهذا نهج يسير عليه من يحاولون عادة تصوير القائد – أى قائد على أنه إنسان مثالى، لدرجة يكاد يبدو وكأنه من طينة أخرى غير البشر، مع أن القائد –أى قائد– هو فى

البداية والنهاية إنسان، يصيب ويخطئ، يأتى الخير كما يرتكب الشر، له حسناته كما أن له مَساوؤه، له انتصاراته، كما أن له هزائمه، وفيه جوانب قوة، وعناصر ضعف.

يجب أن يكون واضحاً فى الأذهان كل الوضوح أن القائد كما سبقت الإشارة ليس فلتة من فلتات الزمان مع أنه أيضا وليد ظروف وملابسات وابن أحداث وصراعات دفعته إلى موقع، وفرضت عليه اتخاذ قرار، أى اختيار بديل من بدائل متعددة أمامه، فإن نجح فى اختيار البديل الصحيح فإنه يفتح الأبواب للصعود والبروز. وهل كان صلاح الدين يُمكن أن يكون ما كان عليه لو لم يسبقه عماد الدين ونور الدين؟ وهل كان سيصبح ما صار إليه لو امتد الأجل بنور الدين ولم يرحل عن الدنيا فى 1174؟ وهل كان صلاح الدين سيكون هو نفسه لو لم يتزامن نضوجه ووجوده فى مصر مع فترة انهيار الخلافة الفاطمية؟ وهل كان سيسير على النهج الذى صار عليه لو لم تعرف الأحداث فى ذلك الوقت أشخاصاً مثل شاور من ناحية وشيركوه من ناحية أخرى وعمورى من ناحية ثالثة؟

من المؤكد أن هناك عنصراً ما جعل عمه شيركوه يختاره معاوناً له ويفضله فى ذلك على أولاده ولا شك من ناحية أخرى أن الرجل – أى صلاح الدين– كان لديه استعداداً لاكتساب خبرة أهلته لأن يخلف عمه فى منصب الوزارة فى مصر، ثم يغتنم الفرصة لإنهاء الخلافة الفاطمية، ونستطيع أن نكتب أحداث هذا الفصل من تاريخ حروب الفرنجة أو الحروب الصليبية بأكثر من أسلوب فى العرض والسرد والرواية، ولكن سنواصل الاعتماد على رواية الأحداث من خلال الاهتمام بعنصر المكان،

فقد كان الصراع العربى- الإسلامى ضد الفرنجة الغزاة صراعا على الأرض. وفى هذا الصراع لعبت المدن والقلاع والحصون والمدائن دوراً كبيراً فى سير الأحداث وتطورها. وتكاد تكون حياة صلاح الدين هى "حياة" المدن التى ولد وعاش فيها، وحياة المدن التى تربى فيها، وقاتل من خارجها أو داخلها، وحياة المدن التى فشل أمامها أو انتصر فيها وتمكن من تحريرها. إن هناك مجموعة من المدن كانت محطات أساسية فى مسيرته.

ونستطيع أن نرسم تاريخ صلاح الدين من خلال خريطة هذه المدن على النحو التالى:

- مدن التكوين والنشأة وهى تكريت والموصل وبلعبك وصولا إلى دمشق.
- مدن التربية العسكرية والسياسية والصعود إلى الحكم وهى دمشق والقاهرة.
- مدن بناء الوحدة وهى مسيرة عكسية للرحلة الماضية أى تنطلق من القاهرة عودة إلى دمشق، ثم حلب والموصل.
- وأخيرا: مدن الهزائم والانتصارات من عسقلان وعكا من جانب، إلى حطين والقدس ونصر الانتصارات فيها من جانب آخر.

وكل مدينة من هذه المدن كبرت أم صغرت ليست مجرد بقعة من الأرض، إنها بجانب ذلك مدار أحداث، ومُحددة مصائر، ومواقع حروب ومعارك ولقاءات ومفاوضات وخسائر وهزائم أحيانا ومكاسب وانتصارات أحيانا أخرى، إنها مكان ولكنه ينطق ويضج بالحركة، حركة البشر وما يخوضونه من صراعات مختلفة الأشكال.

البداية: النشأة والصعود

في أوائل القرن السادس الهجري - الثاني عشر الميلادي- هاجر شازي جد صلاح الدين- مع عائلته التي ضمت زوجه وولدين وبنتا إلى تكريت، التي تقع على الضفة الغربية لنهر دجلة، وعلى مسافة حوالي ثلاثين ميلا من سَامُراء. وبهذه الهجرة ، بدأ تاريخ الأسرة الأيوبية في العراق والشام ،ثم مصر. وتكريت هي أحد مراكز تجمع الأكراد، وكانت عند هجرة شازي إليها تضم عرباً وأكراداً وفرساً وأتراكاً. ويقال أنه أصبح والياً على تكريت. لكن الثابت أنه حين توفي فيها لم يترك بها أثراً كبيراً سوى قبة بنيت فوق قبره. ولكنه ترك فيها ولديه: نجم الدين أيوب وأسد الدين شيركوه، أي أسد الجبل، اللذين ما لبثا أن اشتهرا، وبدأت شهرتهما من أعمالهما العسكرية. مما أهل نجم الدين أيوب إلى أن يصبح والي تكريت، وكانت لها قلعة حصينة، كما كانت تشتهر بصناعة الصوف، وكان البطيخ يزرع بها ثلاث مرات في السنة، وقال عنها الرحالة ابن بطوطة أن أسواقها وجوامعها كثيرة، أما ابن جبير الذي مر بها، في 1184، فقال إن تكريت يحيط بها سور مُحيطه ستة آلاف خطوة، وأبراجه مكينة.

◎ من تكريت إلى الموصل

كانت تكريت في ذلك الوقت تُعد آخر مدينة على حدود العراق. وتتطلب مناطق الحدود اهتماماً خاصاً "ولقد تطلبت ولاية القلعة (تكريت) مهارة سياسية أتقنها نجم الدين، ومقدرة عسكرية، تحلى أسد الدين بها،

مهدتا لهما الطريق للانطلاق فى المعترك السياسى، والقيام بأدوار سياسية وعسكرية أوصلتهما إلى مناصب إدارية عالية". وفى تكريت قدم نجم الدين يد المساعدة إلى عماد الدين زنكى الذى لن ينسى هذه المساعدة، حينما سيلتجئ إليه الشقيقان. ويبدو أن طرد الشقيقين وأسرتيهما من تكريت لم يكن بعيداً عن معاونتهما لعماد زنكي. وكان صلاح الدين يوسف هو آخر ابن ولد لنجم الدين فى تكريت.وقد سجل المؤرخون تاريخ مولده فى سنة 1137، أى سنة طرد والده وعمه منها. بل قيل أنه ولد فى الليلة نفسها التى تلقى فيها نجم الدين وشقيقه أسد الدين أمراً بتسليم القلعة إلى عامل آخر، ومغادرة تكريت فوراً. كان الأمر شاقاً على نجم الدين. ولم يكن أقل مشقة على شقيقه. وكان خروجهما فى ليلة شتوية مظلمة. لم يكونا يعرفان فيهما إلى أين يتجهان. ثم هداهما تفكيرهما إلى أن يذهبا إلى الموصل، حيث عماد الدين زنكى، الذى سبق أن قدما له يد المساعدة، التى كانت السبب الأساسى لطردهما من القلعة التى كادا يتخذانها موطناً. استقبل عماد الدين الشقيقين بترحاب، وحاول أن يرد جميل صُنعهما السابق معه، فأكرم مثواهما، ووفر لهما إقطاعات من الأرض،وما لبث أن اعتمد عليهما فى أعماله العسكرية والإدارية.

قضى صلاح الدين الطفل العامين الأولين من حياته فى الموصل، وهو ككل طفل فى هذه المرحلة من العمر لا يذكر شيئاً عن المدينة، ولا يتذكر ما جرى له ومعه فيها، ولا يعى شيئاً من أحداث هذين العامين، وإن كانت هذه الأحداث قد عادت لتلح عليه وترتسم فى خياله وفى ذاكرته من خلال ذكريات الأسرة، والأحاديث التى كان يُرددها أفرادها عن الموصل، والنوادر التى كانوا يتناقلونها على سبيل الحنين أو التذكر، أو

الاعتبار بالأحداث التى وقعت لهم، أو من قبيل المقارنة بين ما كان، وما هو جارى حولهم من أحداث وتقلبات. خاصة وأن هذه المدينة بكل تاريخها كانت بداية صنع المجد لأسرته، كما كانت موطنه الأول، بل تكاد تكون مسقط رأسه، لو صدقنا الرواية التى تقول أن صلاح الدين ولد فى الليلة التى أمر والده وعمه فيها بمغادرة تكريت، حتى يقال أن والده تلقى نبأ مولده وهو متوتر غاضب كظم.

◎ من بعلبك إلى دمشق

بعد العامين الأولين من حياته اللذين قضاهما فى الموصل، انتقل صلاح الدين مع أسرته إلى بعلبك، التى ساعد والده وعمه فى احتلالها من جانب قوات عماد الدين الذى كافأ نجم الدين بتوليته إدارتها. وكان ذلك فى عام 1139. بينما ظل أسد الدين بجانب عماد الدين ولعب دورا عسكريا ذا شأن فى فتح الرها فى 1144. كما كان على رأس قوات نور الدين بن عماد الدين التى استردت الرها أيضا فى 1146، حينما حاول حاكمها الفرنجى السابق، جوسلين، دخولها. وكافأ نور الدين قائده العسكرى بأن منحه إقطاع حمص والرحبة.

فى بعلبك قضى صلاح الدين سبعة أعوام امتدت من 1139 إلى 1146، وهى الأعوام التى تُشكل عالم الطفولة، بكل تأثيراته فى المراحل التالية من العمر.

فى بعلبك نشأ صلاح الدين وترعرع وسط الأخطار، والأحداث التى طَبعت حياته بطابع خاص، فهو ابن حاكم أو والى القلعة الذى يملك ثلث المدينة، مما يعطى أولاده مكانة متميزة فى الوسط الذى يعيشون فيه.

كما أن الحياة فى القلعة تكاد تكون حياة عسكرية، فكل من فيها على أهبة القتال وعلى استعداد لخوض معركة دفاعاً عن بعلبك ذات الموقع الاستراتيجى، الذى كان يشد أطماع الفرنجة من جهة، وأطماع حاكم دمشق من الجهة الأخرى.

"ولقد تركت حياة القلعة انطباعها على صلاح الدين، فنشأ رجل عمل ومغامرة ومخاطرة، ذا حس تاريخى، ورؤية لعمل التاريخ، وبما أن حياة القلعة كانت تتطلب تمرساً بالفروسية، فلا بد أنه بدأ التدريب على الفروسية فى فترة مبكرة من عمره، وفى بعلبك بالذات، وواظب عليها بعد انتقاله منها".

من بعلبك بدأت خبرة صلاح الدين عن الفرنجة، وعن أخطارهم، وغزواتهم، وطمعهم فى الأرض العربية- الإسلامية كطمعهم فى بعلبك نفسها التى كانوا يتهددونها بين حين وآخر، ويتربصون بها ويخربون زراعتها، ويلقون القبض على بعض أبنائها ويحملونهم أسرى. وفى الوقت نفسه شاهد استعدادات والده للمقاومة والدفاع والقتال حماية للبلد وأهله من المغيرين والطامعين، الذين كان يفاوضهم أحياناً فيحسن المفاوضة، ويحصل من ورائها على أفضل نتائج ممكنة.

وحين خرج صلاح الدين من بعلبك إلى دمشق مع والده، كان يختلف كثيراً عن ذلك الطفل الذى جاء إلى بعلبك من الموصل. وفى دمشق بدأ صلاح الدين يستشعر الخطر الفرنجى على حقيقته، وبدأ يدرك حالات الاختلاف والاقتتال بين القادة العرب - المسلمين، وكانت دمشق مركزاً لذلك كله، الذى رآه صلاح الدين رُأى العين فى عدوان الحملة الصليبية

الثانية وحصارها لمدينته وهو حصار لم ينكسر إلا بعد مقاومة عنيفة على أبواب عاصمة الشام، حيث سمع أحاديث الرجال الذين شاركوا فى المقاومة والجهاد، كما رأى كيف قام العلماء والخطباء بدورهم فى حفز سكان المدينة على الاتحاد والتجمع والقتال. كانت هذه تجربة حية، وقاسية فى الوقت نفسه، على نفسية فتى فى عمر صلاح الدين.. صلاح الدين الذى رأى رُأى العين كيف يقوم الفرنجة بهدم ما بنته عائلته، وكيف يغتالون حلمه وأحلام أمثاله فى الأمن والطمأنينة والهدوء، فأحس بضياع الأمان، وبسيطرة الخوف، وبسيادة عدم الاستقرار. وزاد من تأثير التجربة المرة فى نفسه أنه فقد أخاً له، استشهد وهو يدافع عن مدينته، دمشق، وكانت هذه أول مرة يمر فيها بمثل هذه التجربة: تجربة الموت وفقد أخ عزيز. وما لا يقتل المرء يقويه، ويشحذ عزيمته، ويعمق إرادته. وهذا ما حدث مع صلاح الدين الذى استنبط مِنْ التجربة المرة درساً مفيداً، وهو العمل ضد هذا العدو، وعدم تمكينه من تحقيق أهدافه ضد العرب -المسلمين. وفى مثل هذه السن، يبدأ الفتى فى البحث عن طريق، وتبدأ الأسئلة فى الإلحاح عليه. ولا شك أن السؤال الأكبر الذى أرق من هو فى عمر صلاح الدين وقتئذٍ هو سؤال: كيف تتم مواجهة الخطر الفرنجى؟ خاصة وأنه كان يرى والده مهموماً بالمواجهة، مشاركاً فيها، وأنه كان أحد الرجال الذين فتحوا أبواب دمشق أمام نور الدين.. وما لبث نور الدين أن توسم فى صلاح الدين ما لم يتوسمه فى غيره، فاختاره كى يرافقه فى 1156 فى حلب ومنحه إقطاعاً، وأولاه اهتماماً خاصاً، عبر عنه المؤرخ الكبير ابن خلكان بقوله: "كان مخايل السعادة عليه (صلاح الدين) لائحة، والنجابة تُقدمه من حالة إلى حالة، نور الدين يرى له ويُؤثره، ومنه تعلم صلاح الدين طرائق الخير وفعل المعروف

والاجتهاد فى أمور الجهاد". وما لبث صلاح الدين أن عاد إلى دمشق، حيث تولى وهو ابن التاسعة عشرة "شحنة دمشق" أى قائد الشرطة فيها. صحيح أنه تولى هذا المنصب لفترة قصيرة، ولكنها كانت البداية لصعوده فى سلم الإدارة والسياسة. وحين توجه إلى نور الدين فى حلب مرة أخرى، جعله سفيره إلى أمرائه، وكان يصطحبه معه فى سفره، ويرافقه فى إقامته. كما اختاره كى يصاحب عمه أسد الدين شيركوه فى حملاته إلى مصر.

وهكذا كانت نشأة صلاح الدين فى المدرسة النورية، مدرسة نور الدين التى كان من كبار أساتذتها فى السياسة نجم الدين والد صلاح الدين، وفى الحرب عمه أسد الدين، وقد تعلم من الثلاثة معاً الشىء الكثير فى الإدارة والسياسة والجهاد.

◎.. وجاء إلى القاهرة

لقد أخفق أسد الدين وابن أخيه مرتين فى تحقيق هدف نور الدين فى مصر. ومع ذلك لم يتردد فى أن يقع اختياره عليهما للمرة الثالثة. بل يبدو أنه ألح عليهما إلحاحاً غير قليل، إذ توسم فيهما الخير، ورأى فى خبرتهما فى المرتين السابقتين خير عون لهما فى خوض التجربة الثالثة. وكان أسد الدين وابن أخيه قد وقفا على أحوال مصر الداخلية، وشهدا ضعف الحكم فيها، وقرب انهيار الخلافة الفاطمية. كما وقفا -فى الوقت نفسه- على مصادر قوة مصر، وما فيها من إمكانات وخيرات. ومن هنا، كانت نفس صلاح الدين تهفو إلى مصر، وكانت آماله تتعلق بها. وقد كاشف أحد أصدقائه وهو شاعر يدعى "عرقلة" بذلك. إذ وعده بمنحه ألف دينار إذا ملك مصر. وعندما تحقق ذلك لصلاح الدين كاتبه "عرقلة" وأرسل إليه من

دمشق قصيدة يحدثه فيها بما وعده به. ورد عليه صلاح الدين وأرسل إليه عشرين ألف دينار وليس ألف دينار فقط.

أما الحديث عن تردد صلاح الدين فى اصطحاب عمه فى المرة الثالثة فى التوجه إلى مصر، فقد يكون تعبيراً عن مخاوفه وحذره من المصاعب التى سيواجهها، وهو التردد نفسه الذى يقال إنه أظهره حين عرض عليه الخليفة الفاطمى منصب الوزارة، بعد وفاة عمه شيركوه. فقد رأى صلاح الدين أن الاستيلاء على مصر ليس هدفاً فى حد ذاته، ولكنه وسيلة إلى توحيد الصف العربى-الإسلامى لمواصلة الجهاد ضد الفرنجة المعتدين. وكانت مصر فى ظل الفاطميين مترددة فى حسم أمرها، غير حاسمة فى حمل رسالتها والوفاء بدورها فى الكفاح. كانت أحيانا تمد قدماً ثم ما تلبث أن ترد أخرى، وأحياناً تُلقى بثقلها فى القتال فى الجانب الصحيح، وأحيانا أخرى كانت تضل فى اختيار الجبهة التى تقف بجانبها. وكان نور الدين بعد سنوات الحكم فى الشام، من عاصمته دمشق أو من حلب، قد استقر رأيه على أن الشام وحده لا يكفى لمواجهة الفرنجة، بعد أن امتدت كياناتهم وتمددت من أقصى شمال الساحل الشامى إلى الجنوب حيث حدود مصر. ومن هنا كان تخطيطه وتدبيره بالوصول إلى مصر قبل أن يستولى عليها الفرنجة، أو يسيطر عليها ويحكمها من يواليهم.

وكانت كفاءة صلاح الدين -فى هذا المجال- قد برزت بشكل خاص فى الحملة الثانية التى قادها عمه شيركوه على مصر، فى سنة 1167. فقد برز قائداً يقف وحده ضد قوات عمورى وشاور بن ضرغام الوزير الفاطمى المخادع. كما قاد قواته فى أعمال جريئة، وتحمل وحده مسئولية

الدفاع عن الإسكندرية. وكان هذا، في ذلك الوقت، أكبر مما أنجزه أي واحد من معاصريه من قادة قوات نور الدين، باستثناء شيركوه الذي أبدى ثقته في المؤهلات القيادية لابن شقيقه، ورأى أن قيادته لا يرقى إليها شك، إذا ما أتيحت ليوسف الفرصة الملائمة. كانت كفاءة صلاح الدين هي السبب الذي دفع عمه لاختياره معاوناً له، كما كانت السبب في اعتماد نور الدين عليه.

وبوصوله إلى القاهرة، وتوليه الوزارة فيها، اكتملت الحلقة الأولى من حياة وجهاد صلاح الدين. ويروى ابن شداد أنه سمع صلاح الدين يقول: "لما يسر الله لي الديار المصرية، علمت أنه أراد فتح الساحل، لأنه أوقع ذلك في نفسي" تُرى، أية مشاعر وأحاسيس وانفعالات سيطرت على صلاح الدين في تلك اللحظات التي تحدث عنها ابن شداد؟ كيف كان يفكر ويدبر في لحظة تلقيه خلعة الوزارة من الخليفة الفاطمي؟ وفيم كان تفكيره يدور في لحظة انصرافه من حفل تنصيبه وزيراً؟ هل تمنى لو أن المنية أمهلت عمه شيركوه حتى يظل بجانبه ويتعلم منه الكثير مما كان يحتاج إليه؟ وكيف فكر في وضعه وزيراً في خلافةٍ فاطميةٍ وهو في الوقت نفسه تابع لسيده السُنى في دمشق؟

لقد جرت الأمور بأسرع مما كان يتوقع الكثيرون من شهود تلك الأحداث، والمؤثرين فيها "أما صلاح الدين فقد كان شاباً عطشاً إلى مجد كان يستحقه ويعتبر نفسه أهلاً له. لكن انتقال السلطة والأمور إليه بصورة مفاجئة بعد وفاة عمه شيركوه واعتلاءه سدة القوة في مصر – أغنى البلاد الإسلامية وأكثرها تحضراً– أحدثا اهتزازاً فورياً في نفسه. وقَل في تاريخ

البشر من لم تمسسه السلطة -على ضرورتها وحاجة المجتمعات إليها- بقدر من الاهتزاز".

ويصور الدكتور جمال الدين الشيال - وهو مؤرخ معاصر- هذه الهزة التى أصابت صلاح الدين خير تصوير، فيقول:

"وصل صلاح الدين إلى دار الوزارة بعد أن قلده الخليفة، فجلس يستقبل الوفود والمهنئين، ويستمع إليهم وهو لا يكاد يعى أكثر ما يقولون، فقد بهرته أبهة الملك وزينة الوزارة، وأثر فى نفسه أشد التأثير هذا الشعور الفياض الذى قابله المصريون به. وكاد يتهيب ما هو مُقدم عليه، وما ألقى على عاتقه من عبء ثقيل ناء به رجال هو دونهم سناً وتجارب، فإنه الآن شاب فى الحادية والثلاثين من عمره لم ينل من الحياة إلا بعض نواصيها، ولم يخض من معاركها إلا ما كان صريحاً واضحاً فى الميدان، بين الجندى والجندى. ولكن الآن يُقبل على معارك أخرى من نوع جديد لم يألفه، فهى معارك قوامها السياسة وتدبير أمور المملكة ورعاية شعب يستحق الرعاية. فأنى له العلم بمواطن هذا الفن كله؟ إن حوله رجالا أشتاتاً يختلفون عناصر وأجناساً ومشارب وغايات ويتباينون نشأة وتربيةً ونفوساً واستعدادات. وعليه أن يرضيهم جميعاً".

كانت الأعباء كثيرة وكانت المسئولية كبيرة وخطيرة، وكانت الظروف دقيقة، والمرحلة حساسة. فكيف يواجه ابن الحادية والثلاثين ذلك كله؟، ماذا يفعل ابن نجم الدين فى مقابلة مع خليفة شاب صغير، ومع قائده فى دمشق، وعدوه عمورى فى بيت المقدس؟ وكيف سيتعامل مع قوات متعددة الأجناس مضطربة الأحوال وكثيرة القيادات ومتنافرة الاجتهادات؟

على قدر أهل العزم تَأتى العزائم، ولم تكن المفاجأة كاملة لصلاح الدين، الذى يبدو أنه كان يفكر ويدبر الأمر من قبل، سواء على المدى القصير أو فى المدى الطويل، حيث كان الهدف واضحاً جلياً، وكانت الطريق إليه قد مهدها له نور الدين: "أثناء ولايته، بعدله وجهاده وهيبته فى جميع بلاده، مع شدة الفتق، واتساع الخرق. وفتح من البلاد ما استعين به على مداومة الجهاد، فهان على من بعده فى الحقيقة، سلوك تلك الطريقة".

ولكن نور الدين رحل فى 15 مايو 1174، وبعد أقل من شهر وفى 11 يوليو العام نفسه رحل عمورى ملك بيت المقدس. فهل كانت هذه صدفة تاريخية أخرى؟ وهل كانت فى صالح صلاح الدين أم فى غير صالحه؟

✠ ✞ ✠

من النيل إلى الفرات

◎ فتنة وفوضى

كانت مصر التى ورثها صلاح الدين ضعيفة سياسياً، مزدهرة اقتصادياً. كانت الأحوال الداخلية مضطربة. واحتاجت من القائد الجديد سنوات، حتى أعاد إليها الاستقرار، وتخلص فيها من منافسيه ومعارضيه، وجمع زمام الأمور بين يديه، وعمل فى الوقت نفسه لتأمين حدود مصر الجنوبية، بفتح بلاد النوبة، كما فتح اليمن. واتجه غرباً حتى سيطر على برقة، أى تونس الحالية. وجاءت رياح عدم الاستقرار من ناحية أخرى، من دمشق وما جاورها شمالاً، وصولاً إلى حلب والموصل.

فما أن توفى نور الدين حتى عادت الأمور إلى ما كانت عليه، قبله وقبل والده، عماد الدين زنكى، من صراع الأمراء والحكام وتفرقهم، وسعى كل منهم للانفراد بحكم مدينة واحدة، وبعض توابعها من قلاع وحصون وبلدان. فهل ذهب سُدا جهاد العماد وابنه من أجل جمع الكلمة فى الشام وتوحيد الصف، وجمع الشمل؟ .. باعتبار ذلك الخطوة الأولى نحو مواجهة الفرنجة واسترداد الأرض والبلاد التى انتزعوها. كان هذا هو الدرس الأول الذى تعلمه صلاح الدين فى بلاط نور الدين، كما تعلم منه درساً مكملا وهو توحيد الشام ومصر، ومد جسر التعاون بين القاهرة ودمشق.

هل كان وارداً فى ذهن صلاح الدين أن يحدث الشقاق بين دمشق

والقاهرة، بالسرعة التى حدث بها، وبمجرد رحيل نور الدين؟ .. وهل كان وارداً لديه أن استعادة هذه الوحدة ستتطلب منه حوالى اثنى عشر عاماً، ينصرف فيها ولو جزئيا عن مواجهة الفرنجة؟

حين علم صلاح الدين بنبأ وفاة نور الدين حاول أن يمد حبل الرجاء مع دمشق، وكتب رسالة إلى ابنه الملك الصالح الذى آلت الأمور إليه فى دمشق، وهو لم يتعد الحادية عشرة من العمر. فى هذه الرسالة تشكك صلاح الدين فى النبأ الذى ورد من جانب "العدو اللعين عن المولى نور الدين ، أعازنا الله فيه من سماع المكروه، ونور بعافيته القلوب والوجوه، فاشتد به الأمر وضاق به الصدر، وانقسم بحادثه الظهر، وعز فيه التثبت وأعوز الصبر" وبعد أن أبدى صلاح الدين جزعه وحزنه – عن طريق الشك– فى النبأ الذى تلقاه، استدرك فى رسالته إلى ابن نور الدين وخليفته فقدم التعزية، ثم أعلن الولاء ودعا إلى تجنب الفرقة والأخذ بالوحدة، وقال: " فإن كان والعياذ بالله قد تم، وخصه الحكم الذى عم (أى الموت)، فللحوادث يدخر النضال وللأيام تصطنع الرجال، وما رتب الملوك ممالكها إلا لأولادها، ولا استودعت الأرض الكريمة البذر إلا لتؤدى حقها يوم حصادها. فالله الله، أن تختلف القلوب والأيدى فتبلغ الأعداء مرادها، وتقدم الآراء رشادها، وتنتقل النعم التى تعبت الأيام فيها إلى أن أعطت قيادها".

وكأنما كان صلاح الدين يتوقع ما ستأتى به الأيام صراعاً، فوجه النصيحة إلى من ظن أنهم سيتلقونها، فقال: "كونوا يداً واحدة وأعضاء متساعدة، وقلوباً يجمعها ود، وسيوفاً يضمها غمد، ولا تختلفوا فتتكلوا، ولا

تنازعوا فتفشلوا، وقوموا على أمشاط الأرجل، ولا تأخذوا الأمر بأطراف الأنمل. فالعداوة محدقة بكم من كل مكان، والكفر مجتمع على الإيمان. ولهذا البيت منا ناصرٌ لا نخذله وقائمٌ لا نسلمه. وقد كانت وصيته لنا سبقت ورسالته عندنا تحققت بأن ولده القائم بالأمر" وبعد أن أعلن أنه وفى هذه الوصية، وأعلن طاعته فى الغياب والحضور، قال إنه سيتساند مع "هذا الولد" ضد من ناوأه، ليكون سيفه على من عاداه. وقد قرن صلاح الدين الفعل بالقول، فضرب النقود باسم الملك الصالح، وأمر بأن يُخطب باسمه على المنابر.

لكن رسالة صلاح الدين لم تلقى فى قلوب الذين وجهها إليهم أرضاً خصبة، بل لقيت أرضاً بوراً، يملأها شوك الخلاف، والفرقة، ومحاولة كل أمير الاستئثار بما تحت يديه، دون أن يشغل نفسه بأمر العدو الذى يتربص بأرض العرب-المسلمين، ويريد انتزاع المزيد منه. لقد عادت الأمور سيرتها الماضية، وأصبح هم كل حاكم أو أمير أو والٍ أن يستأثر وحده بما تحت يده، فضلا عن أن يمتد بأطماعه إلى ما جاوره. وفى هذه الفوضى التى انتشرت بسرعة، أصبح هؤلاء الأمراء المتنافسون لا يترددون فى الاستعانة بالفرنجة، يطلبون معونتهم، ويقدمون لهم التنازلات.

وفى هذه الفتنة صارت الوصاية على الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين هى فرس الرهان الذى تسابق عليه الأمراء فى دمشق، وفى حلب، وفى الموصل. ووقعت فصول دامية ومثيرة بأكثر وأكبر مما كان متوقعاً.

فقد سارع ابن عم الملك الصالح ويدعى سيف الدين غازى بن قطب الدين مودود بن زنكى، أمير الموصل إلى إعلان استقلاله وتوسيع

أملاكـه فـى منطقـة الجزيـرة. أمـا والى حلـب الخصـى كمشـتكين فقـد ألقـى بمنافسيه فى غياهب السـجن، كمـا أعلـن نفسـه وصيـاً علـى ابـن نـور الديـن، الـذى تنازعـه متنافسـون فى دمشـق نفسـها كـان علـى رأسـهم ابـن المقـدم، وفـى تنـازعهم هـذا أهملـوا أمـر العـدو، الـذى هـاجم دمشـق وحاصرهـا، ولـم يرفـع حصاره إلا بعـد أن تلقى فدية كبيرة، بجانب إطلاق سراح أسراه.

◎ عودة إلى دمشق

كـان صـلاح الديـن يراقـب مـا يجرى بحسـرة، وهـو يـرى الآمـال الكبـيرة توشـك علـى الانهيـار، كمـا يـرى القضيـة الكـبرى، قضيـة مواجهـة الفرنجـة وهزيمتهـم وطردهـم، تـتراجع. وكـان عليـه أن يتقـدم وبسـرعة، خاصـة أن دمشـق -مدينتـه- كـانت علـى موعـد معـه. وقـد ألح أهلهـا علـى أمـيرهم ابـن المقـدم كـى يدعـو صـلاح الديـن إلى نجدتـه. ولـم يكـن هـو فـى حاجـة إلى دعـوة أو نـداء. كـان بـدوره علـى موعـد مـع مدينتـه، وانطلـق مسـرعاً إليهـا، ومعـه سبعمائة فـارس مـن خـيرة جنـوده، الذيـن اجتـاز بهـم الصحـراء متجنبـاً قـلاع الفرنجـة.

وفـى 24أكتوبـر 1174 كـانت دمشـق تفتـح ذراعيهـا وقلبهـا لبطلهـا الـذى دخلهـا وتلقـاه أهلهـا بـالفرح والسـرور. وتوجـه مـن فـوره إلى دار كـان يملكها أبـوه فـى دمشـق.

هـا هـو صـلاح الديـن فـى دمشـق مـرة أخـرى. كـم كـان يهفـو إليهـا، ويحـن إلى أيامـه وذكرياتـه فيهـا ولكنـه يعـود اليـوم إليهـا وهـو ذو شـأن آخـر، ولـه فيهـا شـئون أخـرى، لقـد انطلـق منهـا ليجمـع القـاهرة معهـا، وهـا هـو يعـود إليهـا ليجمعهـا مـرة أخـرى مـع القـاهرة لتكونـا محـور الحركـة ومنطلـق النصـر. ولكـن

دمشق اليوم تختلف عن دمشق الأخرى، دمشق نور الدين الذى وحد بينها وبين شمال الشام والجزيرة، وها هما تحاولان اليوم أن تشداها إليهما، وتُبعداها عن الدور المنوط بها، والمُلقى عليها فى المواجهة ضد الفرنجة.

هل تذكر صلاح الدين ماذا فعل نور الدين فى عاصمة الأمويين يوم يسر له أبوه وعمه دخولها؟ لم يكن نور الدين شبحاً يطارد صلاح الدين، بل كان قدوة ومثلا، خاصة بعد أن أدرك ابن نجم الدين أيوب حجم مسئولياته وواجباته. ولذلك اتخذ قلعة دمشق مقراً له، استقبل فيه زعماء المدينة من مختلف الطبقات ورحب بهم، وأحسن إليهم، كما أمر بتخفيف الضرائب عن سكان دمشق.

ومرة أخرى، أصبحت دمشق نقطة انطلاق لمسيرة الكفاح والجهاد. لقد اطمأن عليها، ووثق بها، بعلمائها وكبرائها وقوادها وعامتها. ولم يغادرها إلا بعد أن ترك أخاه طغتكين قائداً عليها. ومنها انطلق صلاح الدين وقادته إلى لبنان، وقطع البقاع، حتى بلغ بعلبك، البلدة التى تَفتحَ وعيه فيها على خطر الفرنجة وأطماعهم ومآربهم الخطيرة. ولكنه لم يدخل بعلبك، بل خلفها ورائه وانطلق منها ووجهته حمص، التى لم تقاوم كثيراً، وإن كانت قلعتها قد استعصت عليه. فلم يعبأ بذلك كثيراً. وترك حولها حامية صغيرة فرضت الحصار عليها. وسار هو وبقية جيشه فى وادى نهر العاصى متوجهاً إلى حماة التى استسلمت له، كما استسلمت قلعتها.

لكن حمص وحماة لم تكونا الهدف الذى تطلع إليه صلاح الدين فى هذه اللحظات. كانت حلب هى مقصده ومعقد أمله. كان يعرف لها دورها ويدرك أهميتها كعاصمة لشمال الشام. وقد حط الجيش رحاله حول حلب

فى اليومين الأخيرين من ديسمبر سنة 1174.

◎ الأعداء الثلاثة

كان كمشتكين حاكم حلب قد استعد لجولة طويلة ضد صلاح الدين، ولذلك أعد للمعركة عدتها معنوياً ومادياً. كان تحت يده سلاح خطير، تمثل فى الملك الطفل الصالح إسماعيل الذى أمره أن يمتطى صهوة جواد، وأن يطوف بشوارع المدينة، وبأن يدعو أهلها إلى نصره ومؤازرته وحمايته من عدوه، أى صلاح الدين. وفى توسله إلى أهل حلب لم ينس الملك الطفل أن يبكى، ويسيل الدمع مما أثر فى عواطف السكان، وألهب حماسهم لمساندته. ولم يكتف كمشتكين بهذا السلاح، بل استخدم أسلوب عدو عدوى صديقى، وهل هناك -فيما جاور دمشق- أعدى لصلاح الدين من راشد الدين سنام زعيم "الحشاشين" ومن ريموند الثالث أمير طرابلس، والذى كان قد أصبح فى ذلك الوقت وصياً على الملك الفرنجى الصبى بلدوين الرابع ملك مملكة بيت المقدس؟

كان "الحشاشون" قد استقروا فى "مصياف" فى شمال سورية، وكانوا -بعد رحيل نور الدين- يعتبرون صلاح الدين عدوهم الأول، بعد أن قضى على الحكم الفاطمى (الإسماعيلى) فى مصر. وبالفعل، استخدم سنان بعض خدعه وبراعته وكفاءة رجاله فى الوصول إلى خيمة صلاح الدين الذى كاد يلقى حتفه على أيديهم. أما الفرنجة مُمَثلين فى ريموند الثالث -فكانوا يُدركون خطر استيلاء صلاح الدين على حلب. لذلك، توجه جيش طرابلس نحو حمص، كى يقطع الطريق على صلاح الدين ويهدد مؤخرة قواته التى تحاصر حلب. أدرك صلاح الدين هدف عدوه. فرفع

الحصار عن حلب وأسرع فى العودة إلى حمص فاستولى على قلعتها التى كانت قد استعصت عليه من قبل، كما استولى على بعلبك، المدينة التى حكم أبوه قلعتها من قبل. وبالسرعة التى امتازت بها قواته، عاد صلاح الدين إلى حماة، حيث فوجئ بجيش يضم قوات حلب والموصل، أما قوات ريموند فقد انصرفت بعد أن حققت هدفها، وهو رفع حصار صلاح الدين عن حلب. وفى مقابل ذلك أطلق كمشتكين صراح أسراه من الفرنجة، وعلى رأسهم رينو أورينالد دى شاتيون وجوسلين دى كورتناى.

أرسل الملك غازى، ملك الموصل جيشاً لحماية ابن عمه الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين فى حلب. ولكن انسحاب صلاح الدين فوت عليه الفرصة. وقد رأى كمشتكين وغازى وقادة قواتهما أن نجم صلاح الدين يسطع بسرعة فى سماء الشام، وأن أهله أصبحوا يلتفون حوله، ويؤيدون خطاه، ويؤازرونه. أرجف الاثنان خيفة من ذلك. وخشيا عواقبه عليهما. وجمعا أمرهما على ضرب دمشق، فتوجها إلى قتال صلاح الدين، وتحت أيديهما قوات كبيرة. استعد صلاح الدين للمعركة خير استعداد، وخطط لها تخطيطاً محكماً. احتل موقعاً حاكماً يقع على هضبتين تعرفان بـ "قرون حماة". وكان قد دعا غازى وكمشتكين إلى المصالحة. ولكن هؤلاء القوم ركبوا رأسهم، حتى أن سيف الدين غازى طالب صلاح الدين بأن يسلمه كل ما بيده من بلاد الشام، ويعود من حيث أتى، أى إلى مصر. عندئذ رأى صلاح الدين أن القتال قد كُتب عليه وهو كره له. دارت المعركة فى قرون حماة فى 19 رمضان سنة 570 هجرية، الموافق 20 أبريل 1175م. وانتهت بنصر كبير حققه صلاح الدين الذى وجد فى هذا النصر فرصته لإلغاء النقود التى تحمل اسم الملك الصالح إسماعيل، كما أمر بقطع

الخطبة له من فوق المنابر. استغل صلاح الدين هذا النصر في مطاردة قوات حلب وفرض الحصار عليها مرة ثانية. فلما ضاق الحصار على أهلها راسلوا صلاح الدين في الصلح، فلم يمانع خاصة أنهم اقروه على أن يبقى ما بيديه من بلاد الشام، كما أضافوا إليه المعرة، وكفر طاب وغيرهما.

◎ غضبٌ ومكيدة

أشعل هذا الصلح غضب سيف الدين غازى فى الموصل، الذى حاول مرة أخرى بناء الحلف الذى يقاتل به صلاح الدين، والذى جمع فيه بين الحلبيين والفرنجة. وراسل الجانبين من جديد، وحاول أن يخدع صلاح الدين فأرسل إليه طالباً الصلح. بينما راسل أهل حلب يعاتبهم على ما عقدوه مع صلاح الدين، ويدعوهم إلى استئناف القتال، وحمل الرسالتين رسول واحد، وكان من حظ صلاح الدين أن وقع رسول غازى فى خطأ، جعله يقدم لصلاح الدين رسالة سيف الدين غازى إلى الحلبيين. وبينما أدرك صلاح الدين حقيقة ما يدبره الفريقان ضده، لم يكن الرسول ليستطيع تدارك ما حدث.

اتخذ صلاح الدين للمعركة المقبلة أهبتها. وقد جرت فى "تل السلطان" الذى يقع بين حلب وحماة. ولقى غازى وحلفاؤه هزيمة أخرى، استعان صلاح الدين فى تحقيقها بإحضار جزء من جيشه فى مصر. خلف صلاح الدين حلب وراءه، وانطلق إلى شماليها، فاستولى على بذاعة ومتبج واعزاز وحين كان يحاصر قلعة هذه البلدة الأخيرة، وبينما كان يطلب الراحة فى خيمته شعر فجأة بضربة على رأسه، لم ينقذه منها إلا "الذردية" الواقية التى كان يرتديها تحت عمامته وأسرع حرسه بإلقاء القبض على

المهاجمين وكانوا ثلاثة من رجال راشد الدين سنان زعيم الحشيشية، وقد نجحوا في التسرب إلى داخل حرس صلاح الدين، وارتدوا زيهم، وحاربوا في صفوفهم. اعترى صلاح الدين، نتيجة هذا الحادث، خوف رهيب لم يشعر به يوماً في أكثر المعارك التي خاضها رهبة. ولذلك شدد إجراءات الحراسة حول خيمته. وكان الحشاشون ماهرين في القيام بمثل هذه العمليات الفدائية، وفي تدبيرها، وتنفيذها بدقة. وأدرك صلاح الدين أن أعداؤه يحاولون أن ينالوا منه بالمكيدة ما لم ينالوه بالقتال والحرب.

ورأى أن كمشتكين كان وراء ذلك. ودفعه هذا إلى محاصرة حلب للمرة الثالثة، كان الحصار هذه المرة مشدداً، مما ألجأ الملك الصالح إسماعيل إلى عقد صلح في 29 يوليو سنة 1176م مع صلاح الدين، لم يترك بيده سوى حلب نفسها، أما ما حولها من مدن وحصون وقلاع حتى دمشق فأصبحت خاضعة لصلاح الدين، الذى تلقى الاعتراف بذلك من الخليفة العباسي نفسه، كما اعترف سيف الدين غازى بهذا الصلح وانضم إليه، وظل هو والملك العادل محافظين عليه، حتى توفيا. وقد رحل صلاح الدين عن حلب في الأول من أغسطس، حيث توجه إلى مواقع الحشاشين في مصياف وحاصرها ولم يرفع الحصار إلا بعد أن تَشفعَ خاله شهاب الدين الحارمي فيهم، خاصة بعد أن تلقى منهم تهديداً بالقتل إن لم يفعل. وصالح صلاح الدين سنان زعيم الحشاشين، وعاد إلى دمشق.

وبعد هذه الجولة من المعارك والقتال، استشعر صلاح الدين حاجة قواته إلى فترة من الراحة، كما استشعر حنيناً إلى مصر، بعد أن اطمأن إلى حد غير قليل على الأوضاع في بلاد الشام، وفي سبتمبر 1176م أمر

بتسريح جنوده واستخلف أخاه شمس الدولة طوران شاه على دمشق، كانت العودة إلى مصر، فى هذه المرة، مختلفة عن سابقاتها، فقد غادرها فى 1174 وهو تابع للملك الطفل إسماعيل بن نور الدين، وها هو يعود إليها فى أوائل أكتوبر 1176م حاكماً مستقلاً، بعد أن خضع الشام --باستثناء حلب-- لسلطانه، حيث لم يعد له منافس من أمراء العرب-المسلمين فيما بين النيل والفرات.

✠ ✝ ✠

خلافات الفرنجة

◎ أشد العداوات مرارة

فى هذه السنوات، لم يكن الوضع على جبهة الفرنجة أفضل مما كان عليه فى الجبهة العربية-الإسلامية. على الجبهتين كان هناك صراع وخلافات ونزاعات، حركتها أهداف شخصية ومطامع فردية، فى الظاهر. وفى الباطن كانت هناك عوامل دفينة وقوية تختفى خلف الأحداث، وتجعلها تتخذ الوضع الذى اتخذته.

صحيح أن العرب-المسلمين تنازعوا وتقاتلوا بعد رحيل نور الدين محمود، وأن الحشاشين ساهموا بدورهم فى هذه النزاعات، وفى هذا التقاتل. ولكن عامة الناس كانوا يقفون فى الجانب الذى يناصر الاتحاد، ويطالب به، ويعمل من أجله، ويؤازر من يسعى إليه. ووجد هؤلاء الناس على -اختلاف مشاربهم- فى صلاح الدين بطلهم، ورجلهم، والمعبر عن آمالهم، والعامل من أجل تحقيقها.

على الجبهة الأخرى، على الجبهة الفرنجية، كان الصراع أكثر عمقاً وأكبر أثراً، ولعب دوره فى تفتيت قوة الفرنجة، وفى زعزعة كيانهم، وفى إضافة صفحات جديدة فى سجل البداية التى أدت إلى نهايتهم. كان الخلاف بين الفرنجة أمراً متوقعاً ومنتظراً، فقد جاءوا من أقطار شتى، ولكل جماعة رئيس، أو ملك، أو حاكم، أو أمير، ولكل واحد من هؤلاء أحلامه وأطماعه. وبعد حوالى ثلاثة أجيال من الفرنجة، فى الشرق بدأوا يتغيرون،

ويختلفون فى مواقفهم عن الوافدين الجدد، أو عن المغامرين الذين يأتون لهدف عابر ثم يعودون من حيث أتوا، إلى مواطنهم الأصلية فى أوروبا، التى بدأت بدورها تضجر وتضج من حمل أعباء رعاية الكيانات الفرنجية فى الشرق. وقد بدأ فى التراجع شيئاً فشيئاً عدد الوافدين الجدد من أوروبا على هذه الكيانات. ويبرز هذا بشكل خاص فى السنوات التالية، أى بعد فشل الحملة الفرنجية الثالثة فى استعادة بيت المقدس، بعد أن حررها صلاح الدين. ودون أن نستبق الأحداث، فإن عمورى توفى فى 11 يوليو سنة 1174 أى بعد أقل من شهرين من وفاة نور الدين محمود، فى 15 مايو من العام نفسه. وفى خلال هذين الشهرين، انتهز عمورى الفرصة، وتوجه إلى بانياس. كما خرج ابن المقدم من دمشق، وعرض عليه اتفاقاً، قبله ملك بيت المقدس، إذ تضمن حصوله على مبلغ ضخم من الأموال وإطلاق سراح أسراه من دمشق، والتحالف معاً فى المستقبل ضد صلاح الدين. كان هذا آخر عمل قام به عمورى، ورأى الفرنجة فى وفاته فى هذا الوقت، وفيما تعرضت له أسرته من أحداث "نذيراً بزوال مملكة من بيت المقدس". فقد كان آخر ملك جدير بهذا العرش، فى رأى الفرنجة.

وفى السنوات التالية، كان الصراع الداخلى فى صفوف الفرنجة يأخذ أشكالاً حادة ومتعددة، حيث اختلطت الصراعات الشخصية، بالخلافات السياسية، والمنافسات العائلية: "على أن العداوات الشخصية كانت أشد وأقوى من الاختلافات فى السياسة، إذ أضحى معظم البارونات أبناء عمومة أحدهم للآخر. وما يقع فى الأسرة من منازعات يعتبر دائماً أشد العداوات مرارة".

فى 15 يوليو 1174، وعلى يدى بطرك بيت المقدس، تم تنصيب بلدوين الرابع ابن عمورى ملكاً على مملكة بيت المقدس، عند التتويج، لم يكن عمر الملك الجديد يتجاوز الثالثة عشرة وكانت أخته إيزابيلا لم يتجاوز عمرها السنتين. وبجانب صغر سنه، كان بلدوين مصاباً بالبرص. وفى سنوات حكمه تصاعد الصراع وأشتد بين فريقين أو حزبين من البارونات والأمراء: أحدهما هو حزب البارونات المستوطنين الذين ولدوا فى فلسطين أو اتخذوها وطناً لهم، وتأثروا بطبائع البلاد التى وجدوا فيها، والثانى هو حزب الوافدين الجدد، الأكثر شراسة وعدوانية ومغامرة. كان مع الفريق الأول "فرسان الاسبتارية"، ومع الفريق الثانى "فرسان الداوية". وكان الملك بلدوين الرابع الأبرص أداة فى هذا الصراع. ولم يكن له فيه كبير دور. وقد تولى ميلون دى بلانس، صديق والده عمورى، نوعا من الوصاية، بناء على وصية من والد الملك الأبرص. لكن بلانس فشل فى الحصول على رضا الحزب المناهض له. ولم يحصل بالتالى على إجماع المملكة العليا. كما أثار هذا العداوة والبغضاء بين بلانس والبارونات الذين رفضوا معاونته، ولقى منهم الاستهانة بأمره والاحتقار لشأنه. ولكنه استطاع السيطرة على الملك الأبرص، وحاول أن يستبد بالأمر بمفرده. واشتعلت ضده مؤامرات القصر أو مؤامرات الحكم مما أدى إلى طعنه على يد مجهول، فى أحد شوارع عكا.

كان هناك أمير آخر ينافس دى بلانس بل ينازعه السيطرة على عرش مملكة بيت المقدس و هو ريموند الثالث أمير طرابلس. كانت القوانين السائدة فى المملكة فى صف هذا الأمير، إذ كان أقرب الناس إلى الملك الصغير، من جهة أبيه، كما كان يحظى بتأييد عدد كبير من الأمراء البارزين

وذوى النفوذ والتأثير فى أمور الفرنجة، فى الشرق. ولم يأت خريف العام 1174 حتى كانت "المحكمة العليا" تقر بوصاية ريموند الثالث على بلدوين، فى وقت هوى فيه ميلون دى بلانس من السلطة "فى صورة بالغة الأسى".

شغلت هذه الخلافات -إلى حد كبير- الفرنجة عن صلاح الدين، الذى كان يراقبها، ويتابع تطوراتها، كى يقيس تأثيرها على قوة أعدائه، فى وقت مضى فيه يؤمن دولته من القاهرة إلى دمشق.

◎ الوصى والأعداء

كان ريموند فى الرابعة والثلاثين من العمر حين تولى الوصاية على عرش مملكة بيت المقدس. وكان فى سنوات أسره الطويلة قد تعلم اللغة العربية، وعرف الكثير عن تقاليد وعادات العرب -المسلمين ومعاملاتهم. وقد لقى العون فى سياسة حزب المستوطنين الذى تكون من البارونات المحليين "وهيئة فرسان الاسبتارية"، فى مواجهته ضد الحزب الآخر، حزب الوافدين الجدد من الغرب "وهيئة فرسان الداوية". وفى وصفه لريموند الثالث وسياسته يقول: عنه "رنسيمان" إنه "نظر إلى مشاكل إمارات الفرنج من الزاوية المحلية. أولى اهتماماً خاصاً بأن تبقى هذه الإمارات، ولم يحفل بدورها على أنها رمح للعالم المسيحى المعتدى ... غير أنه لم يكن إلا وصياً، له أعداؤه".

عكست هذه الخلافات نفسها على موقف الفرنجة من صلاح الدين الأيوبى. رأى البعض ضرورة التصدى له، ومقاومته، قبل أن تزداد قوته ويستفحل خطره. بينما دعا الفريق الآخر إلى الصلح، والمهادنة، طالما أن صلاح الدين لا يهدد الإمارات الفرنجية.

كـان العـام 1176 مقدمـة لسـنوات حاسمـة فـى تـاريخ الإمـارات الفرنجيـة، وفـى تحديـد المسـتقبل الـذى كـانت تتجـه إليـه. فـى هـذا العـام عـاد مـن الأسـر رينـالد دى شـاتيون، الـذى يعرفـه المؤرخـون العـرب باسـم "أرنـاط" وكذلـك جوسـلين الثـالث أمـير الرهـا السـابق، وخـال الملـك بلدويـن الرابـع. وفـى هـذا العـام، بـدأت اجنيـس كورتينـاى تلعـب دوراً واضحـاً فـى سياسـة مملكـة بيـت المقـدس، وقـد وصفهـا المؤرخـون بالخلاعـة والمجـون "فكـان نفوذهـا بـالغ الخطـورة، جالبـاً للكـوارث، إذ كـانت سيئة الخلـق، شـديدة النهـم، بالغـة التعطـش للرجـال والأمـوال". وفـى عـام 1176 بلـغ بلدويـن الرابـع سـن الرشـد، ولـم يعـد ريمونـد الثـالث وصيـا عليـه، فـى حـين اشـتد المـرض علـى الملـك، الـذى خضـع خضوعـاً شـبه مطلقـاً لثلاثـة تحكمـوا فيـه مـن أسـرة كورتينـاى، هـم أمـه أجنيـس، وخالـه جوسـلين وثـالث الثلاثـة هـو رينـالد دى شـاتيون. كـانت هـذه المجموعـة تسـعى جـاهدة كـى تقطـع الطريـق علـى وصـول ريمونـد الثـالث إلى عـرش مملكـة بيـت المقـدس. ووجـد هـؤلاء الثلاثـة ضـالتهم فـى شـخص أمـير وافـد هـو "وليـم ذو السـيف الطويـل" وهـو ابـن واحـد مـن كبـار الأثريـاء فـى شمـال إيطاليـا. وقـد تـزوج إيزابيـلا بعـد أربعـين يومـاً مـن وصولـه إلى أرض المملكـة. لكـن المنيـة عاجلتـه فـى يونيـو 1177، وتـرك زوجتـه حـاملاً فـى طفـل سيكون وريثـاً للعـرش، وقـد وضعتـه فـى آخـر الصيـف، وهـو الـذى سـيعرف فيمـا بعـد باسـم الملـك بلدويـن الخـامس. وفـى أغسـطس مـن العـام نفسـه، وصـل الأمـير فيليـب صـاحب الفلانـدرز، وهـو قريـب للملـك بلدويـن الرابـع. وأجمـع البارونـات علـى أن يتـولى الأمـير فيليـب الوصايـة علـى المملكـة، بعـد منحـه جميـع الصلاحيـات لإدارتهـا، دون قيـد أو شـرط. ولكنهـم فوجئـوا برفضـه هـذا العـرض. كمـا رفـض قيـادة حملـة كـان الفرنجـة يخططـون للقيـام بهـا ضـد مصـر، بالتعـاون مـع الأسـطول

البيزنطى، على الرغم من الهزيمة الكبيرة التى لحقت بالإمبراطور البيزنطى مانويل كومنين فى معركة "ميريو كيفالوم" فى سبتمبر من العام الفائت، على يدى القوات السلجوقية. وبلغت فاجعة هذه الهزيمة عند الفرنجة ما بلغته عند البيزنطيين .

وأمام إصرار "الأمير فيليب على رفض ما عرضه الفرنجة عليه، قرر الملك بلدوين الرابع تعيين رينالد دى شاتيون (أرناط) وصياً على المملكة وقائداً أعلى لقواتها. لكن ذلك لم يوقف تردى الأوضاع فى مملكة بيت المقدس، التى وصلت إلى درجة كبيرة من التدهور والانحطاط، ولكن اليأس يولد الشجاعة أحياناً، وقد تساعد الظروف عندئذ أن تؤتى الشجاعة أكلها، ولكنه عادة قصير العمر. ففى غمرة هذه الصراعات الداخلية، كانت مناوشات أو حتى جولات الفرنجة ضد صلاح الدين محدودة الأثر والتأثير. فما من قوم تفرقوا إلا وفشلت ريحهم، ووهنت عزيمتهم، وتراخت قبضتهم،وهزلت إرادتهم وهذا ما حدث للفرنجة فى هذه المرحلة. لقد افتقدوا القائد المحنك الجسور، بل أصبحوا يبحثون عن قائد يأتيهم من وراء البحار، ينتظرونه، أو يستدعونه، ثم لا يلبثون أن يتبينوا أنهم انتظروا سراباً، خاب الرجاء فيه، وضاع الأمل. أما الأكثر كفاءة منهم على الإمساك بزمام القيادة فقد عارضه منافسوه، حتى أعجزوه، ومن لم يصبه بالعجز أصابه التهور، والتهور ليس دليل قوة، بل برهان ضعف ويأس.

◎ نكسة ونصف انتصار

وسط هذا كله، أحرز الفرنجة انتصاراً كبيراً، لكن العجز الذى أصابهم جعله نصرا غير كامل، بل نصف انتصار، فى حين لحقت بصلاح

الدين نكسة مؤلمة إلا أنها لم تكن هزيمة كاملة، بل ربما كانت الدرس الذى استفاد منه وهو يشق طريقة إلى حطين.

ومن أسف، أن المؤرخين العرب والمسلمين يكادون يتجاهلون عامدين هذه النكسة التى عمد مؤرخوا الفرنجة بدورهم إلى الاستفاضة فى الحديث عنها، وعما جرى فيها.

حين عاد صلاح الدين إلى مصر، من الشام، فى أواخر العام 1176. وصرف اهتمامه إلى تحصين مواقعه الدفاعية، خاصة فى القاهرة، حيث بنى السور حولها، والقلعة واهتم بتعمير الأسطول، وزار الإسكندرية ومواقعها الحصينة. وفى هذا الوقت كان يتوقع حملة فرنجية، ظل ينتظرها ويعد العدة لمواجهتها. فلما تأخرت، تأكد أنها لن تقع، وظن أن الفرنجة فى خلافاتهم غارقون. وكان يجيد تجنيد الجواسيس والعملاء الذين يزودونه بأخبار الفرنجة وأحوالهم. ودفعه هذا إلى التفكير فى شن غارة سريعة على مواقع العدو. ولم يكن تفكيره بعيداً عن الصواب. ولكن التفكير الصائب لا يكفى وحده، بل يجب أن يقترن بالأسلوب الصحيح فى تخطيطه وتنفيذه. بحيث لا يندفع القائد بتهور إن وجد فى عدوه ضعفاً، بل يجب أن يرى جوانب هذا الضعف، ويتأكد من حقيقتها، ففى الحروب يكون التظاهر بالضعف، بل الانسحاب من أبواب الخدعة.

وكعادته فى، غاراته ومعاركه، بدأ صلاح الدين تحركه من القاهرة فى يوم الجمعة الثالث من جمادى الأولى 537- أى فى نوفمبر 1177 بعد أن أدى صلاة الظهر. وبعد ستة أيام وصل إلى بلبيس. وفى 18 نوفمبر اجتاز الحدود المصرية إلى ساحل فلسطين الجنوبى، وقبل أن يصل إلى عسقلان بدأ

جيش صلاح الدين وكأنه يظن أنه يقوم بنزهة. وحين أقيمت سوق للعساكر ليتاعوا ويشتروا بدت وكأنها سوق عكاظ، حيث أُنشدت القصائد، وعُرضت بضائع للبيع وأخرى للشراء مع أن "المدى بعيد والخطب شديد" حسب تعبير القاضى الفاضل فى رسالة له عن هذه الموقعة التى لم تجد القوات العربية – الإسلامية فى بدايتها مقاومة تذكر، حتى وصلت هذه القوات عند عسقلان، التى أسرع إليها الملك بلدوين بكل من كان لديه من جنود، لم يتجاوزوا خمسمائة فارس، وصل بلدوين إلى حصن عسقلان، قبل صلاح الدين. واستعد كل فرنجى يستطيع حمل السلاح، فاندفع هؤلاء مسرعين ووقع أكثرهم فى أسر صلاح الدين.

عندئذ أحس صلاح الدين بالزهو، والثقة واستصغر شأن عدوه، فأرخى الزمام لجنوده وتركهم يدخلون القرى ويغيرون عليها ويحصلون على الغنائم منها. كانت الأوضاع مغرية لصلاح الدين و قواته الذين اكتسحوا المنطقة بسرعة، و لم يجدوا مقاومة بل "انبسطوا و ساحوا فى الأرض آمنين مطمئنين". و كاد صلاح الدين يطرق أبواب بيت المقدس، الذى و قف دون دفاع أو حامية.

تباعدت خطوط قوات صلاح الدين، ما بين بيت المقدس وعسقلان، مما أتاح للملك بلدوين قدراً من حرية الحركة، استغله فى شق طريقه للخروج من طوق الحصار حول عسقلان، و بعث برسالة إلى "فرسان الداوية" دعاهم فيها إلى اللحاق به عند عسقلان. تجمعت قوات الفرنجة حول بلدوين، فى حين كانت قوات صلاح الدين متفرقة بغير نظام. وبينما هم فى هذه الحالة، هجمت قوات بلدوين على قوات صلاح الدين عند

"قلعة تل الجزر"، إلى الجنوب الشرقى من الرملة. كانت المفاجأة كبيرة لصلاح الدين وقواته، الذين لم يستطيعوا ترتيب أوضاعهم. لحقت الهزيمة بجيش صلاح الدين ونجا هو نفسه من الموت بصعوبة. يصف "رنسيمان" نتائج هذه المعركة فيقول:

"ولى الجيش المصرى الأدبار إلى بلاده فى بضع ساعات، بعد أن خلف وراءه كل ما حازه من غنيمة و أسرى، بل إن العساكر المصرية قذفوا بأسلحتهم إلى الأرض، كيما تزداد سرعتهم فى الفرار. وحاول صلاح الدين أن يُعيد الأمن إلى نِصابه، غير أن اجتياز صحراء سينا كان شاقاً ومؤلماً. فانقض البدو على هؤلاء الفارين الذين كادوا أن يكونوا عُزلاً من كل سلّاح، وأرسل صلاح الدين من الحدود المصرية، القُصّاد على الهُجنِ إلى القاهرة، ليؤكدوا لكل من تُسول له نفسه التمرد، أنه ما زال على قيد الحياة، وحمل حمام الزاجل بطائق البُشرى بعودته إلى جميع أنحاء الديار المصرية غير أن هيبته تعرضت لمحنة قاسية".

وإن كان رنسيمان قد عد ما حدث عند الرملة "انتصاراً باهراً" لأنه أنقذ مملكة بيت المقدس عندئذ، إلا وأنه استدرك فاعترف بأن هذا "النصر الباهر" لم يغير الوضع على مر الزمان. لماذا؟ لأنه "لا حد لموارد مصر، على حين أن الفرنج ما زالوا يعانون نقصاً فى الرجال" ويعلق القاضى الفاضل على هذه الموقعة بقوله: "إن هذه النكسة لن تخفف من العزم على مواصلة الغزو". أما العماد الأصفهانى فقال "إنها كسرة وهى ببركات الدار العزيزة نصرة". ويقول مؤرخ معاصر: "كانت هزيمة الرملة نكراء، ويشبه هولها هول هزيمة مصر فى سيناء سنة 1967".

استفاد صلاح الدين من درس الهزيمة، أو النكسة، أو الكسرة. وتعلم أنه من الخطأ مواجهة الفرنجة قبل توحيد الجبهة العربية-الإسلامية. وهذا ما سيكرس له جهده ووقته فى السنوات العشر المقبلة، حيث رأى إنه من الأجدى أن يتمركز جيشه فى الشام، حتى يكون على أبواب فلسطين، وبعد العودة إلى مصر مكث فيها صلاح الدين عدة شهور تأكد فيها أن مقاليد الأمور تحت سيطرته. وفى أواخر ربيع 1178 عاد إلى دمشق وأمضى بها بقية السنة.

✠ ✞ ✠

الطريق إلى حطين

◎ 3 مواقــع .. وهدنــة

استقبلت مملكة بيت المقدس ملكها العائد من معركة الرملة استقبال الأبطال وعلى الرغم من المرض الذى اشتد عليه، شعر بلدوين الرابع بنشوة دفعته إلى شن بعض الهجمات، كما شرع فى بناء بعض الحصون من أهمها قلعة قرب بانياس فى مكان يُعرف باسم "مخاضة الأحزان" ثم عرف فيما بعد باسم "جسر بنات يعقوب" الذى جاءت أهميته من وقوعه كطريق يربط بين دمشق من جهة، وطبرية وصفد من الجهة الأخرى، وبعد أن استكمل الفرنجة بناء هذه القلعة، طلب منهم صلاح الدين هدمها، وعرض عليهم مبلغاً من المال رفضوه. كما استُكملَ ذلك ببناء حصن "هونين" إلى الشمال الغربى من بحيرة الحولة.

وما أن حل العام 1179 حتى نجح صلاح الدين فى كسب ثلاثة مواقع مهمة ضد الفرنجة، حدثت الأولى عند بانياس فى أبريل من ذلك العام، وأصيب فيها الملك بلدوين بإصابات خطيرة، ونجا بصعوبة، فى حين فقد الفرنجة واحداً من أهم فرسانهم هو همفرى دى تورون صاحب حصن بانياس، "وتعتبر وفاته ضربة بالغة العنف أصابت مملكة بيت المقدس، إذ كان الرجل الوحيد من شيوخ ساحتها الذى أجمع الناس على احترامه وتبجيله". أما الموقعة الثانية فدارت فى 10 يونية من ذلك العام، فى سهل "مرجعيون" ومرة أخرى لجا بلدوين بصعوبة فى حين تم أسر كثيرين من أعيان الفرنجة،

وفى أواخر أغسطس من العام 1179 كسب صلاح الدين الموقعة الثالثة إذ نجح فى فتح قلعة مخاضة الأحزان. وفى حين أغار صلاح الدين على صور وصيدا وبيروت، فإن أسطوله الذى خرج من موانئ مصر هاجم ميناء عكا.

بدأ صلاح الدين السير فى درب الانتصار من معركة لأخرى، واضطر بلدوين الرابع إلى طلب عقد هدنة، جرى إبرامها فى مايو 1180 كما جرى إبرام هدنة مماثلة مع إمارة طرابلس بعد شهر. اغتنم صلاح الدين فترة الهدنة لاستئناف سياسته فى توحيد العرب -المسلمين، وفى جمع الصف، فقد أصبح على ثقة تامة - خاصة بعد هزيمة الرملة - أن هذا هو الطريق الوحيد لاسترداد بيت المقدس، لقد ركز أنظاره على حلب، وإليها اتجه.

على جبهة العدو تردت الأوضاع أكثر من ذى قبل، تزايد مرض الملك بلدوين الرابع، واستفحل الخلاف على خلافته ووراثة عرش مملكة بيت المقدس، فيما بعده، وكانت الوسيلة للبحث عن ملك جديد أو وصى قوى هى البحث عن زوج للأميرة سيبيلا شقيقة بلدوين الرابع الكبرى، تعددت فصول زواج ايزابيلا زواجاً جديداً وكثرت حكايتها، إلى أن استقر الأمر على زواجها بأمير هفا قلبها إليه وأحبته هو جاى لوزجنان الذى جاء إلى بيت المقدس من فرنسا كى يتزوج الأميرة فى العام 1180، وتدهورت صحة بلدوين الرابع عن ذى قبل، وكأن تدهورها كان يوازى تدهور الأوضاع العامة للمملكة التى أصبحت تخضع تماماً لكلمة أم الملك وخاله. بينما احتدم الصراع بين أقوى اثنين من أمراء الفرنجة فى تلك الفترة، وهما ريموند الثالث أمير طرابلس ورينالد دى شاتيون، وكان الملك وأمه وخاله والحاشية أكثر ميلاً إلى رينالد، بينما أضمروا العداء لريموند الثالث الذى

كان يناصره عدد غير قليل من الأمراء والبارونات.

كان الوضع في 1180 سنة التهادن بين صلاح الدين من جانب وكل من مملكة بيت المقدس وإمارة طرابلس من جانب آخر، أو الفرنجة عامة كان يتصف بصفتين أساسيتين:

الأولى: كان صلاح الدين يتقدم بالعرب- المسلمين نحو الاتحاد، بينما كان الفرنجة يسيرون نحو المزيد من الخلافات. وبمعنى آخر وجد العرب- المسلمون في صلاح الدين قائداً قوياً ومجاهداً عقد العزم على تحرير الأراضي المحتلة، بينما كان الفرنجة يفتقدون القائد الذي يوحدهم، ويجمع إرادتهم على التمسك بالأرض التي احتلوها.

الثانية: أن الفرنجة وجدوا في معاهدة الهدنة فرصة لالتقاط الأنفاس، لعلهم ينجحون في استعادة وحدتهم وجمع إرادتهم على هدف واحد.

ولكن بعض أمراء الفرنجة المتهورين لم يكونوا يدركوا مدى الضعف الذي لحق بهم، أو كانوا بمعنى أدق لا يرون مظاهر العافية التي لحقت بالجسد العربي-الإسلامي، نتيجة لتوحد القوى بقيادة صلاح الدين. وكان على رأس هؤلاء الأمير رينالد دي شاتيون أو أرناط. وقد أجمع المؤرخون على وصفه بالمغامرة والتهور والتعصب وسيطرة الروح العدوانية على تفكيره وأعماله، ولم تزده السنوات الست عشرة التي قضاها في الأسر في يد العرب- المسلمين إلا تهوراً وغروراً وعدوانية، وحقداً على العرب المسلمين. وقد أطلق صراح رينالد من الأسر في 1175، وتزوج بعد إطلاق سراحه من وريثة صاحب الأردن، لم يتزوجها حباً فيها بل بسبب طمعه فيما تحت يديها من أراض وحصون هي الأردن والشوبك والكرك، بما

هذه المنطقة من أهمية، كموقع استراتيجى فاصل ومتحكم فى الطريق بين مصر والشام، وبين كل منهما والحجاز، ولعل ذلك هو الذى دفع رينالد إلى زواجه من وريثة هذه المنطقة، بعد أن تزوجت من قبل برجلين آخرين. لقد كان دافعه إلى الزواج هو أن عينه كانت على حصنى الشوبك والكرك الذين يستطيع منهما أن يقطع الطريق على العرب- المسلمين وعلى تجارتهم وقوافلهم التى تتجه لأداء فريضة الحج.

◎ غزو ونهب وجشع

كان رينالد إذن - بجانب رعونته وتعصبه الدموى- يتصف بالجشع الشديد إلى النهب، وفى سبيل ذلك لا يحترم عهداً ولا يتمسك بميثاق، خاصة حين لا يجد من يردعه، وكان الملك بلدوين الرابع أضعف من أن يتصدى لنزوات رينالد وتهوره. وقاد ذلك إلى عدم احترام رينالد لنصوص معاهدة 1180 بين صلاح الدين وبيت المقدس، والتى نصت على حرية مرور التجار بين الدولتين بسلام، طوال فترة سريان المعاهدة، ولكن جشع رينالد دفعه فى 1181 إلى تحصيل الرسوم من قوافل الحج التى تمر بالغرب بين الأراضى التى يسيطر عليها. كما دفعه غروره وتهوره إلى التفكير فى الزحف إلى المدينة المنورة حيث يوجد قبر الرسول محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم لاحتلالها، وفعلاً خرج فى العام نفسه على رأس قوة من رجاله وسار متجهاً إلى المدينة المنورة حتى وصل إلى "تيماء"، وهى واحة تقع فى منتصف الطريق بين الأردن والمدينة. وعندئذ استولى على إحدى القوافل الكبيرة وسلب منها ثروة ضخمة وزاد على ذلك أن قطع طريق الحج بشكل نهائى.

طلب صلاح الدين من الملك بلدوين أن يقدم تعويضات لمن وقع عليهم الضرر، وأن يوقف تصرفات رينالد العدوانية. على الرغم من اعتراف بلدوين الرابع بعدالة المطالب التى تلقاها من صلاح الدين إلا أنه لم يستطع فرضها على رينالد، وإزاء هذا لم يكن صلاح الدين يستطيع الوقوف عاجزاً فقد سار ابن أخيه ونائبه فى دمشق "فروخ شاه" وأغار على إمارة الكرك مما اضطر رينالد إلى العودة من الصحراء العربية. وفى هذه الفترة رست فى ميناء دمياط سفينة أو أكثر تحمل تجاراً وحُجاجاً من الفرنجة كانوا فى الطريق إلى بيت المقدس فاستولى عليها صلاح الدين. وكان عدد هؤلاء يزيد على ألفى شخص غرق منهم عدد كبير. وقال صلاح الدين إنه لن يفرج عمن بقوا تحت يديه إلا إذا أفرج رينالد عن الأسرى الذين عنده.

◎ حلب: فتح وسرور

شَعَر صلاح الدين، وسط هذه الأحداث، أنه غاب عن الشام أكثر مما يجب. وخلال ذلك، كان سيف الدين غازى أمير الموصل قد غادر الدنيا وتولى مكانه أخوه عز الدين أرسلان بن مسعود، وحين تلقى صلاح الدين نبأ وفاة الملك الصالح إسماعيل وأنه أوصى أيضاً بملكه لابن عمه عز الدين، خشى أن يستغل الفرنجة هذا الوضع، ولذلك توجه إلى الشام من القاهرة فى مايو 1182، وهو يرى أن عز الدين مسعود قد أصبح قوة لها شأنها، وإن عز الدين قد ترك أمر حلب لأخيه عماد الدين مقابل استيلائه على سنجار.

كان على صلاح الدين فى هذه الفترة أن يُحارب على جبهتين فى الشام، جبهة ضد الفرنجة من ناحية وجبهة ضد بقايا الزنكيين من ناحية أخرى. وكان عليه أن يفرغ من إحدى الجبهتين بسرعة حتى يتفرغ لأمر

الجبهة الأخرى، وكانت الجبهة الأخيرة هى بالطبع جبهة الفرنجة، خاصة وأن معاهدة الهُدنة المبرمة معهم قد انتهى موعدها.

وفى حربه على جبهة الزنكيين تظاهر صلاح الدين بأنه سيهاجم حلب، ولكنه عبر الفرات وهاجم معاقل أخرى، وأستولى عليها، كان من بينها الرها وسورج ونصيبين. وفى 10 نوفمبر وصل إلى الموصل مرة أخرى ولكنه لم يستطع اقتحامها، فرفع الحصار عنها، ثم استولى على سنجار.

فى 21 مايو 1183 عاد صلاح الدين إلى الظهور مرة أخرى عند أسوار حلب. وقد طلب عز الدين مسعود وأخوه عماد الدين المساعدة والنجدة من الفرنجة، ووعدهم بدفع 10 آلاف دينار سنوياً، وإعادة بعض البلاد إليهم، على رأسها مدينة بانياس. وفعلاً هاجمت قوات الملك بلدوين دمشق، لكنها عجزت عن دخولها. واشتد المرض عليه وظل أسبوعين بين الحياة والموت.

وفى إمارة إنطاكية الفرنجية أرسل أميرها بوهيموند الثالث إلى صلاح الدين، وهو عند أسوار حلب، يدعوه إلى عقد هُدنة لمدة أربع سنوات، ولم يمانع صلاح الدين فى ذلك بل وافق.

كان عماد الدين أضعف من أن يواجه قوة صلاح الدين، فطلب الصلح وعرض عليه صلاح الدين أن تعود إليه ولاية سنجار، بجانب نصيبين وسروح والبرقة. قَبلَ عماد الدين هذا العرض بسرور، وخرج مغادراً حلب التى شيعه أهلها هاتفين: "يا حمار بعت حلب بسنجار"!

كان صلاح الدين يدرك أهمية حلب، وابتهج بدخولها. وروى أحد المؤرخين أنه قال لمن حوله: "والله ما سررت بفتح مدينة كسروى بفتح

هـذه المدينـة، والآن تبينـت أننـى أملـك البـلاد وعلمـت أن ملكـى قـد اسـتقر وثبـت".

دخل صلاح الدين حلب فى 18 يونيـو سـنة 1183 مسـروراً منصـوراً فى موكب رسمى، واسـتقبله أهلها مبتهجين فرحين مرحبين. كانت حلب ذات أهمية سياسية واستراتيجية كبرى، إنها المعقل الأهم فى شمال سوريا. وحين عاد صلاح الدين فى 24 أغسطس 1183 إلى دمشق، التى اتخذها عاصمة له، كانت دولته تمتد من برقة إلى دجلة، ومنذ قرنين من السنين لم يظهر بين العرب– المسلمين أمير فى قوته "صار صلاح الدين وعمره خمسة وأربعون عاماً، أقوى شخصية فى العالم الإسلامى، ويستطيع أن يَجمع الجنود والمؤن من منطقة تمتد ما بين دجلة شرقاً وحدود تونس غرباً".

◎ الفرنجة فى حالة حصار

هل أخطأ صلاح الدين حين قضى هذه السنوات التى بدأت بوفاة نور الدين محمود فى 1174 فى محاربة قوى عربية إسلامية أخرى؟ هل أضاع وقتاً ثميناً انصرف خلاله عن توجيه جهده نحو المعركة ضد الفرنجة؟

أياً كان الأمر، فإن هذه الحروب التى خاضها صلاح الدين ساعدته فى توحيد الجبهة العربية الإسلامية من جانب، كما أنها لم تسمح للفرنجة بتوسيع نطاق الإمارات التى أقاموها، أو بقيت فى أيديهم حتى ذلك الوقت، كما أن هذه الحروب، مكنت صلاح الدين من إقامة قوة كبيرة فى المنطقة تملك من الطاقات البشرية والمادية ما يؤهلها للقيام بعمل حاسم، لمنازلة جميع قوى الفرنجة فى المشرق " فى أرض معترك واحدة، وفى ظروف مختارة بشكل يناسب ويمكن من النصر، وخلال زمن موافق، يُتيح إحراز نصر

ساحق ضد القوى المعادية". وقد عبر المؤرخ الفرنجي "وليم الصوري" عن الحقيقة نفسها بقوله إن الفرنجة كانوا يدركون بوضوح "أنه لو قدر لصلاح الدين النجاح في إضافة حلب إلى ممتلكاته، فإن بلادنا سوف تكون محاطة بقواته، فيهددها بأسه من كل جانب، فتصبح وكأنها في حالة حصار"، وبدخوله حلب صحت رؤية صلاح الدين، ففي الوقت الذي كان يتقدم ويوحد أجزاء دولته ويوسعها، وقف الفرنجة يحاورون في مكانهم لا يتقدمون خطوة إلى الأمام، بل يتأخرون بسبب نزاعاتهم وصراعاتهم الداخلية. وبذلك، ثبت أن كيانات كالكيانات الفرنجية العدوانية التي أقيمت في ذلك الوقت، ثبت أنها إذا لم تتوسع وإذا لم تواصل الاعتداءات فإنها لا تلبث أن تتراجع، وتنكمش وتلحقها الهزائم.

ولم يأت مارس من العام 1186 حتى دانت الموصل، وأميرها عز الدين مسعود بالتبعية لسلطان السلطان صلاح الدين الذي خُطب باسمه على المنابر، وضُربت السكة (أي العملة) باسمه.

في هذه الأثناء، وعلى جبهة العدو، شَعر الملك بلدوين الرابع بالعجز عن إدارة شئون مملكة بيت المقدس وعقد اجتماعاً للنبلاء الذين وافقوا – ومعهم أم الملك – – بطريرك القدس – على تنصيب جاى لوزجنان زوج ايزابيلا شقيقة الملك وكونت يافا وصياً على عرش المملكة، على أن يحتفظ الملك بلقبه ويحصل على معاش شهرى كبير، وتعهد لوزجنان –من جانبه– بألا يجلس على عرش بيت المقدس طالما بقي بلدوين الرابع على قيد الحياة، كما تعهد بألا يتحول العرش إلى أحد آخر.

أشعل هذا التغير نيران الخلاف بين الأمراء المتنافسين في مملكة بيت

المقدس. هناك من رفضوه وعارضوه "معارضة تزكيها مصالحهم الذاتية ودوافعهم الشخصية" حسب تعبير "وليم الصورى" الذى أضاف أبعاداً جديدة عن هذه الخلافات بقوله:

"ثم كان إلى جانب هؤلاء نفر كانوا يتذرعون بالصالح العام، ويجاهرون بخوفهم على وضع المملكة، وراحو يُصرحون علانية بأن الكونت (جى لوزجنان) ليس بالرجل الكفء لحمل المسئولية، وأنه أعجز من أن يدير دفة قارب المملكة، على أن هناك رهطاً منهم كانوا يطمعون فى أن تؤدى وعود "جى" لهم إلى تحسين أوضاعهم، فزعموا أن الخير كل الخير فيما تم.

"وترتب على هذا كله أن سرى بين الناس تذمر كبير، وتفرقوا فى آرائهم شيعاً متباينة"

لم يستطع لوزجنان وقف التدهور فى مملكة بيت المقدس، التى ازدادت فى أيامه ضعف على ضعف. تنبه الملك بلدوين الرابع إلى ذلك، وعزله من الوصاية على العرش، وفى مارس 1183 وقع الاختيار على بلدوين الخامس ابن ايزابيلا أخت بلدوين الرابع، من زوجها الأول ليكون ملكاً على عرش مملكة بيت المقدس وكان عمره خمس سنوات وأثار ذلك خلافات جديدة كما أشعل خلافات قديمة فى صفوف أمراء الفرنجة، وفى نوفمبر من العام نفسه وقع الاختيار على ريموند الثالث أمير طرابلس ليكون وصياً على العرش، حتى يبلغ الملك سن الرشد. وفى 16 مارس 1185 مات الملك بلدوين الرابع. وفى العام نفسه، تم إبرام معاهدة جديدة بين صلاح الدين ومملكة بيت المقدس مدتها أربع سنوات.

وفى سبتمبر 1186 مات الملك بلدوين الخامس بعد شهور من

تنصيبه، ومرة أخرى احتدم واحتد الصراع بين الفرنجة، وبخاصة بين الأمراء المتنافسين. وكادت تنشب حرب أهلية بين مؤيدى ريموند الثالث أمير طرابلس ومؤيدى جى لوزجنان الذى أعلن تنصيب زوجته ايزابيلا –أخت الملك بلدوين الرابع– ملكة على مملكة بيت المقدس. وبعد شد وجذب "نجحت جهود حزب البلاط فى مساندة لوزجنان ليصل إلى عرش مملكة بيت المقدس. وبذلك، سيطر هذا الحزب على شئون المملكة، وفشل الحزب الذى يُساند ريموند الثالث".

✠ ✝ ✠

معركة حطين

◎ عجلة تؤدي إلى هلاك

خرج ريموند الثالث أمير طرابلس من الصراع على العرش دون أن يحوز ما كان يريده، وما كان أكثر أمراء الفرنجة أهلية له، بشهادة المؤرخين فقد. تمت تنحيته عن الوصاية على العرش، كما تم حرمانه من الجلوس عليه. وكان ريموند من أنصار مهادنة صلاح الدين. وبعد هذه التطورات، مد حبال الود معه، وقدم له النصح، وبعث إليه برسائل. وبلغت العلاقات بينهما الحد الذى وصفه المؤرخ الكبير ابن الأثير بأن ريموند انتمى إلى صلاح الدين "واعتضد به، وطلب منه المساعدة على بلوغ غرضه من الفرنج، ففرح صلاح الدين والمسلمون بذلك، ووعده النصرة".

كانت العلاقات بين صلاح الدين وريموند الثالث -على هذا النحو الذى صوره المؤرخون- ذات طابع خاص، لم تعرفه أحداث الحملات الفرنجية إلا فى حالات نادرة جداً، منها -كما سيلى- علاقات صلاح الدين مع الملك ريتشارد قلب الأسد، وعلاقات الكامل محمد مع فردريك الثاني، فى القرن التالى.

وكان جى لوزجنان قد أعلن، بعد تتويجه ملكاً على مملكة بيت المقدس، التزامه باستمرار الهدنة المعقودة مع صلاح الدين. ولكن رينالد دى شاتيون، من موقعه فى الأردن والكرك والشوبك. لم يترك بنى قومه يستفيدون من هذه الهدنة. و"على نفسها جنت براقش"، كما يقول المثل

العربى المعروف، فقد أدى عمل أخرق ارتكبه رينالد -كعادته-، إلى سقوط الهدنة وإلى إشعال نيران الحرب التى عادت عليه وعلى الفرنجة ككل بأوخم العواقب. إذ كانت حماقة صاحب الأردن وطيشه هما الشرارة التى قادت إلى معركة حطين.

ففى أواخر 1186 أو فى أوائل 1187 أقدم رينالد على قطع الطريق على قافلة كبيرة، كانت فى الطريق من القاهرة إلى دمشق، وهى تسير فى أمان كفلته الهدنة المعقودة منذ 1185. كانت القافلة من الضخامة بحيث أسالت لُعاب رينولد، الذى استولى على أمتعة التجار وما كانوا يحوزونه، كما ساقهم ومعهم عائلاتهم أسرى فى قلعة الكرك. وصلت أنباء الاعتداء إلى صلاح الدين فأرسل إليه يطلب منه احترام الهدنة بإطلاق التجار الأسرى، وتقديم تعويض عما لحق بهم من خسائر

ضرب رينالد بمطالب صلاح الدين عرض الحائط. ورَوَت بعض المصادر أنه قال للتجار الذين أسرهم "إذا كنتم تثقون بمحمد فليأت محمد لإنقاذكم". وربما يكون قد قال شيء من ذلك للرسل الذين حملوا رسالة صلاح الدين الذين خاطبوا الملك لوزجنان بالمطالب العادلة نفسها، والتى بلغت من عدالتها أن الملك نفسه استمع إليها، ودعا رينالد إلى قبولها ولكنه. ركب رأسه واستكبر، ولم يكن فى وسع لوزجنان أن يفعل له شيئا.

وبذلك، تجمعت الأسباب التى جعلت الحرب حتمية: فقد وحد صلاح الدين الجبهة العربية -الإسلامية، فى وقت نَخر فيه سوس الانقسام فى هياكل إمارات الفرنجة فى الشرق، فأصبحوا بانقسامهم وخلافهم غير مؤهلين لمواجهة أعباء هذه الحرب التى جعلها نقض الهدنة من جانب رينالد

"بصورة وقحة" حسب تعبير رنسيمان أمراً لا مفر منه.

وكانت هذه هى اللحظة التى انتظرها صلاح الدين، لم ينتظرها قاعداً أو ساكناً بل انتظرها بالعمل والإعداد والاستعداد. ورأى فى هذه اللحظة الفرصة المناسبة كى يضرب ضربته، ويكسر عظام الفرنجة، ويحطم قوتهم فى معركة فاصلة حاسمة. وقد كانت حطين كذلك، لأن نتائجها حسمت أمر وجود الفرنجة وحددت مصير الإمارات الفرنجية، التى قضت سنوات بعد ذلك وهى تحتضر، ثم تُدب فيها العافية، ثم تعانى من سكرات الموت، حتى لفظت أنفاسها الأخيرة، وكان هذا قدرها ومصيرها الذى تقرر فى معركة حطين، التى تعتبر من أقصر المعارك فى التاريخ العسكرى ومن أكثرها حسماً كذلك. "أحداث هذه المعركة، بكل مجرياتها وتفصيلاتها، تعبير واضح وصحيح عن كفاءة صلاح الدين قائداً سياسياً وبطلاً عسكرياً ومخططاً استراتيجياً من طراز فريد، فى ذلك العصر. فقد أحسن استغلال الخلافات الداخلية بين الفرنجة أحسن استغلال، كما أحسن اختيار قادة جيشه أو جيوشه إحسانه فى تدريب القوات التى تجمعت لديه، وفى تسليحها". وها هى اللحظة قد جاءت لإعلان الجهاد، واستنفار الحماسة، وإثارة الجميع ودعوتهم للالتفاف حول رايته. طلب صلاح الدين من الجنود والمقاتلين من مصر والشام وحلب والجزيرة وديار بكر. ودعا الفقهاء وعلماء الدين ليكونوا مع المقاتلين يحثونهم على الصبر والجهاد ويدعونهم إلى الاستشهاد.

◎ عبور الأردن

بدأ تجمع جيوش صلاح الدين فى مايو ١١٨٧، وكان هذا العام فى

شهد –منذ بدايته– معارك كر وفر ضد الفرنجة، خطط لها صلاح الدين جيداً، وأدارها بكفاءة واستطاع من خلالها أن يستنزف جهد الأعداء، وأن يعرف مكامن ضعفهم ومصادر قوتهم. وفي هذه الجولات التمهيدية للمعركة الفاصلة لم يخسر صلاح الدين أية جولة من الجولات التي خاضها.

وكعادته، في معاركه الأساسية، اختار صلاح الدين يوم الجمعة الذى وافق 26 يونيو 1187، لاستعراض جيشه، في "عشترا" من إقليم حوران. كان عدد قواته التي استعرضها اثنا عشر ألف فارس وعدد المشاة ثلاثة عشر ألفاً، بجانب المتطوعين. ومنذ البداية، أشرف صلاح الدين بنفسه على ترتيب قواته، وقرر لكل فرقة موقفها، بل لكل فرد، كما حدد أماكن الأكمنة ودورها، ودور حملة الرماح والنشاب. ورتب جيشه على هيئة القلب الذى قاده بنفسه، ثم الميمنة والميسرة والمؤخرة (أو الساقة بلغة ذلك العصر) والطليعة أو قوة الاستكشاف، وعلى هذه الهيئة توجهت القوات إلى طبرية، وطالب القائد جنوده بألا يتزحزح واحد منهم من المكان المحدد له. كما خاطبهم بقوله: "إذا دخلنا بلد العدو فهذه هيئة عسكرِنا، وصورة مواردنا ومصادرنا، ومواضع أطلابنا، ومصارع أسنتنا، وشوارع أعنتنا، وميادين جردنا، وبساتين وردنا، ومواقف صروفنا، ومصارف وقوفنا، ومرامي مرامنا".

وفي يوم السبت 27 يونيو عَبر صلاح الدين وقواته نهر الأردن جنوبي طبرية. وبعد أن بات ليلة عند "الأقحوانة"، توجه إلى طبرية نفسها فاستولى عليها، بينما تحصنت البارونة ايشيف زوجة ريموند الثالث داخل

القلعة، وأرسلت إلى الفرنجة تطلب النجدة.

عقد الملك جى لوزجنان مجلس أمرائه عند "صفورية" -بالقرب من عكا- وعرض عليهم الموقف. تحاور المجتمعون حواراً ساخناً لم يخل من الحدة، وتبادل الاتهامات. وينقل لنا المؤرخ "ابن الأثير" بعض ما جرى فى هذا الاجتماع، ولا نعرف كيف وصل هذا إلى علمه، ويذكر أن الأمير ريموند قال: "إن طبرية لى ولزوجتى، وقد فعل صلاح الدين بالمدينة ما فعل وبقيت القلعة وفيها زوجتى. وقد رضيت أن يأخذ صلاح الدين القلعة وزوجتى وما لنا بها ويعود، فوالله لقد رأيت عساكر الإسلام قديماً وحديثاً، ما رأيت مثل هذا العسكر الذى مع صلاح الدين كثرة وقوة، وإذا أخذ طبرية لا يمكنه المقام بها، فمتى فارقنا وعاد عنها أخذناها، وإن أقام بها لا يقدر على المقام بها إلا بجميع عساكره، ولا يقدرون الصبر طول الزمان عن أوطانهم وأهليهم، فيضطروا إلى تركها".

كما ينقل ابن الأثير أن رينالد دى شاتيون رد على ريموند قائلاً: "قد أطلت فى التخويف من المسلمين، ولا شك أنك تريدهم وتميل إليهم، وإلا ما كنت تقول هذا، وأما قولك إنهم كثيرون فإن النار لا يضرها كثرة الحطب".

عاد الأمير ريموند إلى الحديث فقال: "أنا واحد منكم إن تقدمتم تقدمت، وإن تأخرتم تأخرت، وسترون ما يكون".

◎ وقفة سوداء

كانت "صفورية" من أنسب المواقع لمعسكر الفرنجة "لما توفر بها من الماء والمراعى لخيولهم" حسب تعبير "رنسيمان" الذى يضيف: لو أنهم - أى

الفرنجة- بقوا في هذا الموضع "لما خاطر صلاح الدين أبداً بمهاجمتهم". وما كان لهم أن يبقوا، وما كان على صلاح الدين إلا أن ينتظر استدراجهم إلى الفخ الذى نصبه لهم. وفعلاً، ما لبث صلاح الدين أن تلقى من -عيونه وجواسيسه- نبأ تحرك قوات الفرنجة وتخليها عن الموقع الممتاز في "صفورية". وبدوره، تحرك، ولكن في الاتجاه الصحيح، وتوجه بجيشه إلى حطين التي تمتاز بغزارة مراعيها ووفرة مياهها.

عندئذ، أجمع الفرنجة على أن يخوضوا الحرب ضد صلاح الدين في حطين، وعندئذ أيضاً حذرهم ريموند الثالث الذى قال للملك لوزجنان: "هذا صلاح الدين الذى لا يقاس بأحد من السلاطين لتسلطه وإقدامه على المخاوف والصبر. والصواب ألا نخالطه ولا نباسطه ولا نخالفه، ونقبل شرائطه".

فما كان من الملك إلا رد مشورته، وقال له: "في قلبك المخافة، وأنا لابد أن أصدمه وأصده، وأرادده حتى أرده".

في يوم شديد الحرارة، وهو يوم الجمعة، 3 يوليو سنة 1187 غادر جيش الفرنجة صفورية، غادر حدائقها الخضراء، وسار عبر طريق جرداء. وفي مسيره الصعب، كان جيش الفرنجة لقمة سائغة لقوات صلاح الدين الذين اغتنموا فرصة الإنهاك الشديد الذى لحق بالخيول العطشى وبالمقاتلين الذين يئنون من الحر تحت ثقل دروعهم وأسلحتهم، فأمطروا مقدمة الجيش ومؤخرته بالسهام، وبحركات خفيفة كانوا يبتعدون سريعاً قبل أن يتمكن الفرنجة من الانتقام.

كانت ساعات السير نهاراً شاقة مضنية، أعجزت غالبية الجيش عن

مواصلة التحرك، فما كانوا عليه بقادرين. لقد هدهم العطش، وآلمهم القيظ، وكانوا فى أشد الحاجة إلى وقت يستريحون فيه من عناء الطريق. وبالفعل، قر قرارهم على أن يتوقفوا تلك الليلة. كانت وقفة سوداء عليهم، خاصة وأنهم توقفوا عند بئر جف ماؤها، وفوق الهضبة التى تشرف على حطين مباشرة، وأمامهم تل صخرى تعلوه قمتان تعرفان باسم "قرون حطين".

◎ انتهت قبل أن تبدأ

لقد نجح صلاح الدين فى استدراج الفرنجة إلى الموقع الذى أحسن هو اختياره، وأساءوا هم اختياره. وبذلك كسب المعركة قبل أن تبدأ. إذ حانت له آخر الأمر الفرصة التى ينشدها. وهذا ما عبر عنه ريموند الثالث حين علم بالأمر، فأطلق صيحته الأخيرة:"يا الله، انتهت الحرب، لقد هلكنا، وزالت المملكة" وكانت كلماته صرخة البرية، لم يستمع إليها أحد من بنى قومه، ولا كان بمقدور أحد أن يستجيب لها لو استمع إليها، كانت الآذان صماء، وكانت الأبصار كالبصائر عمياء، الأولى لا تبصر والثانية لا تتدبر.

بات الفرنجة ليلتهم فى هم وغم، يبحثون عن قطرة ماء- فى جو خانق- فلا يجدونها، وحين خرج نفرٌ من عساكرهم يتفقدون الموقع بحثا عما يفتقدون، فقدوا أرواحهم أيضاً. وزاد الطين بلة بالنسبة لقوات الفرنجة، أن قوات صلاح الدين أشعلت النيران فى الأعشاب الجافة القريبة من مواقع الفرنجة، فكاد دخانها يصيبهم بالاختناق. وفى تلك الليلة لم ينم صلاح الدين. بل راح يتفقد قواته ويشد من أزرهم، ويرتب صفوفهم، وقيل إنه أمر بصب الماء على الأرض بطريقة يراها ويسمعها الفرنجة الذين يتحرقون ظمأً كى يزيد عذابهم.

طلع نهار الرابع من يوليو 1187 وبدأ معه هجوم قوات صلاح الدين على قوات الفرنجة، التى كان هدفها الأول فى الساعات الأولى من الصباح هو الوصول إلى المياه. وحاصرهم المقاتلون العرب -المسلمون من كل جانب، وزاد الدخان الذى انبعث من الحرائق المتقدة فى الأعشاب من ضيق الفرنجة الذين لقى عدد كبير منهم مصرعهم فور بدء المعركة. ولكن صلاح الدين كان يريد أن يتمهل فى خوض المعركة، إلى أن تتوسط الشمس كبد السماء، وتبلغ درجة الحرارة ذروتها، لتكون أشعة الشمس الحارقة ناراً تُحيل السلاح الثقيل الذى يغطى أجساد الفرسان إلى شواظ من نار، يكوى بدلاً من أن يحمى. وبالفعل اضطربت قوات الفرنجة، وسقطت فى دوامة من الفوضى، التى تزايدت مع تزايد ضغط وحصار القوات العربية ـ الإسلامية من كل جانب.

كان صلاح الدين يتحرك، ويحرك قواته ويوجهها، يأمرها أحياناً بأن تتراجع، ثم يدعوها إلى أن تتقدم فى خطوات حسبها جيداً، وتم فيها التنسيق بين أجنحة الجيش المختلفة، التى ألحقت بالفرنجة خسائر راءوها فازدادوا ضعفاً على ضعف، ورأوا أنهم لا محالة مهزومون، صحيح أن اليأس يدفع أحياناً إلى البلاء. لكن هذا فى الغالب موقف فردى. فما يُغنى جيشاً يتقهقر إقدام هذا الفارس أو ذاك، وشجاعة أمير أو آخر، حتى لو كان هذا الأمير فى مستوى وكفاءة الأمير ريموند، الذى رأى بثاقب خبرته أن النهاية وشيكة، فصاح فى من حوله: "من استطاع العبور فليعبر، فالمعركة ليست لصالحنا، والقتال لا يمكن الاستمرار فيه".

كان هذا صوت الهزيمة يطلقه أمير شجاع، رأى من سنوات تحول

ميزان القوة بين بنى قومه وبين العرب- المسلمين. فأطلق التحذير بعد الآخر، ولكن أحداً لم يستمع إليه، بل اتهموه بالخيانة والعمالة.

◎ .. وجاء النصر

حين أصبحت الشمس فى رابعة النهار"نهار حطين" كانت قوات الفرنجة قد خارت قواها. عندئذ اندفع ريموند ومعه عدد من الفرسان كى يستغل ثغرة فى صفوف قوات صلاح الدين، فرأى قائد الميمنة رغبتهم فى الخروج من أرض المعركة، أفسح لهم بدهاء، حتى تمكنوا من الفرار سالمين. وبذلك خسر الفرنجة واحداً من أمهر قادتهم العسكريين، إن لم يكن أكفأهم سياسياً.

هل علم صلاح الدين بفرار ريموند؟ لقد كان -منذ البداية- واثقاً من النصر، ولكن قلقه على رجاله وقواده لم يفارقه. إنه يريدهم سالمين، خاصة وقد حمى وطيس المعركة. إنها إذن فى أعنف لحظاتها، لحظات الحسم والمصير. إن أكثر ساعات الليل سواداً هى أقربها لطلوع الفجر، وكذلك إن أكثر لحظات المعارك شراسة أقربها لسطوع النصر. إنه يتحرق شوقا إليه، إنه منه قريب، قاب قوسين أو أدنى، يستطيع أن يلمسه بأصابعه ويتحسسه بيديه. ولكنه لن يطمئن حتى يرى الفرنجة قد توقفوا نهائياً عن القتال. إنهم يتساقطون ولكنهم يقاتلون. أين أنت يا لحظة النصر؟ لم يجد بداً من دفع أكبر قواته، أو "الاحتياطى الاستراتيجى" بلغة العصر. لم يدفعها يأساً بل دفعها أملاً فى الحسم، والقضاء على البقية الباقية من قدرة الفرنجة على القتال، الذين ما زالوا يقاتلون يائسين، لدرجة أنه عندما سقطت خيمة الملك نصبوها من جديد. وراودهم أمل خافت فى أن يشنوا حملتهم الأخيرة،

وصلا كانت آخر حملاتهم في حطين. ويسجل ذلك أحد المؤرخين فيقول إن الفرنجة حين حملوا تلك الحملات "ازدادوا عطشاً، وقد كانوا يرجون الخلاص في تلك الحملات مما هم فيه، فلم يجدوا إلى الخلاص طريقاً، فنزلوا عن دوابهم، وجلسوا على الأرض، فصعد المسلمون إليهم، فألقوا خيمة الملك، وأسروهم عن بكرة أبيهم".

اللحظات الأخيرة من المعركة، وكانت عند العصر تقريباً، يرويها "ابن الأثير" فيقول على لسان الأفضل وهو من أبناء صلاح الدين الصغار، وكانت هذه أول معركة يشهدها وهو بجوار والده. يذكر الأفضل:"كنت إلى جانب أبي في ذلك المصاف، وهو أول مصاف شاهدته، فلما صار ملك الفرنج على التل في تلك الجماعة، حملوا حملة منكرة على من بإزائهم من المسلمين حتى ألحقوهم بوالدي. فنظرت إليه وقد علته كآبة وأربد لونه، وأمسك بلحيته وتقدم وهو يصيح: كذب الشيطان. فغار المسلمون على الفرنج، فرجعوا فصعدوا إلى التل فلما رأيت الفرنج قد عادوا والمسلمون يتبعونهم صحت من فرحي: هزمناهم، فعاد الفرنج فحملوا حملة ثانية مثل الأولى، وألحقوا المسلمين بوالدي، وفعل مثل ما فعل، وعطف المسلمون عليهم، فألحقوهم بالتل، فصحت أنا أيضا هزمناهم، فالتفت والدي إلي، وقال: اسكت ما نهزمهم حتى تسقط تلك الخيمة. وإذ هو يقول لي، وإذا الخيمة قد سقطت، فنزل السلطان وسجد شكراً لله تعالى، فبكى من فرحه، وكان سبب سقوطها أن الفرنج لما حملوا تلك الحملات ازدادوا عطشاً، وقد كانوا يرجون الخلاص في بعض تلك الحملات مما هم فيه، فلم يجدوا إلى الخلاص طريقاً، فنزلوا عن دوابهم وجلسوا على الأرض، فصعد المسلمون إليهم، فألقوا خيمة الملك، وأسروهم عن بكرة أبيهم وفيهم الملك وأخوه

والبرنس أرناط (أى رينالددى شاتيون) صاحب الكرك، ولم يكن فى الفرنجة أشد عداوة منه للمسلمين.

وبعد أن يورد ابن الأثير أسماء عدد من كبار أمراء الفرنجة الذين تم أسرهم يختتم روايته نقلا عن الأفضل بن صلاح الدين بالكلمات التى سارت مسار المثل وهى : "كثر القتل والأسر فيهم (أى فى الفرنجة) فكان من يرى القتلى لا يظن أنهم أسروا واحداً، ومن يرى الأسرى لا يظن أنهم قتلوا واحدا".

ويأتى التعليق الخاتمة الذى يلخص تاريخ مرحلة كاملة من تاريخ حملات الفرنجة إذ يقول ابن الأثير "وما أصيب الفرنج منذ خرجوا إلى الساحل، إلى الآن، بمثل هذه الوقعة".

كانت هذه الوقعة، أى موقعة حطين، هى الأصل أما ما تلاها من أحداث وأفعال وردود أفعال فقد كان من الهوامش، أو أقل أهمية، لا أدل من أن المعركة كانت حاسمة فاصلة من ذلك المشهد الذى جمع بين أمراء الفرنجة وهم يساقون صفاً إلى خيمة صلاح الدين الذى استقبلهم استقبال قائد منتصر كريم، حتى يقال أنه "حياهم فى لطف وبشاشة"، وحين دخل الملك جى لوزجنان يتعثر فى خطاه أسرع إليه، فأخذ بيده، وأجلسه إلى جواره. وقدم له كوباً من الماء المثلج. شرب الملك نصف الكوب، وأعطى نصفه الآخر إلى رينالد دى شاتيون عندئذ علا الغضب وجه صلاح الدين، وخاطب الملك عن طريق مترجمه قائلا: إنك أنت الذى سقيته الماء، ولست أنا. وكان من عادات العرب أن الأسير إذا أكل وشرب عند من يأسره، يكون قد نال الأمان. وهدف صلاح الدين من كلماته هذه أن يقول لجى

لوز جنان إنه فى أمان لم ينله رينالد. وقد التفت صلاح الدين إلى رينالد هذا يوبخه ويقرعه على ما صدر منه من أقوال، وما ارتكبه من أفعال خَرقَ بها المعاهدات. فقال رينالد: "لقد جرت بذلك عادة الملوك". وعندئذ خاطبه صلاح الدين قائلا: "تُرى لو ركبت أنا رأسى وسلكت مسلكك ثم وقعت أثيراً فى قبضتك، فأى المواقف يكون موقفك منى؟"

أجاب رينالد فى عنجهية:"أقطع رأسك دون تردد" عندئذ لم يتردد صلاح الدين في طعن رينالد وفاء بوعد قطعه على نفسه، إذا وقع فى يده. وحين ارتعد الملك جى لوز جنان خوفاً من أن يلحقه ما أصاب رينالد، طمأنه السلطان بقوله إن الملك لا يقتل ملكاً.

جرى نقل الملك والأمراء الأسرى إلى دمشق آمنين مكرمين،أما الأسرى الفقراء فقد تم بيعهم رقيقاً.

ويتساءل المؤرخون عادة: لماذا انتصر صلاح الدين فى حطين، ولماذا هزم الفرنجة؟ يحاول البعض إرجاع ذلك إلى تفوق قوات صلاح الدين عدداً على عدوهم. ولكن الراجح أن القوتين كانتا متقاربتين ولم يكن هناك تفوق عددى كبير يفسر هذا النصر الكاسح. ويسجل آخرون أن هذا النصر يرجع إلى تنظيم العرب- المسلمين لقواهم على يد صلاح الدين، واتحاد هدفهم بل إجماعهم على تحرير أرضهم المحتلة، فى وقت نشب فيه الخلاف بين الفرنجة. وساد وأصبح كيانهم محاصراً بين جناحى دولة صلاح الدين فى الشام ومصر، فضلاً عن مهارة جيش صلاح الدين تكتيكياً واستراتيجياً وفهماً لطبيعة الأرض التى قاتل عليها ومن أجلها.

✠ ✞ ✠

تحرير القدس

◎ إنجازات ثلاثة شهور

"إن العمر القصير، والأجل غير مأمون، وقد بقى الفرنج فى هذه الحصون، وهى كوكب وصفد والكرك وغيرها، ولابد من الفراغ منها، فإنها في وسط بلاد الإسلام ولا يؤمن شر أهلها، وإن أغفلناهم ندمنا فيما بعد".

إنه صلاح الدين يتحدث من موقع المسئولية، ومن موضع تحمل عبء الرسالة الذى ألقى على كاهله، رسالة الجهاد لتحرير الأرض المغتصبة، صحيح أن هذه الكلمات لم يقولها غُداة انتصاره فى حطين، إنه أدلى بها بعد ذلك، ولكن هذه الكلمات تصور بدقة موقفه بعد النصر، حيث لم يتحدث من موقع الزهو والفخر والاعتداد بالنفس، بل من موقع المجاهد صاحب الرسالة تحدث. فهو -بعد حطين- لم يسترخ ولم يسترح، لم يتوقف عند ما أحرز ولم يكتف بما أنجز بل قرر مواصلة الكفاح والجهاد واستمرار القتال حتى يستخلص أرض العرب- المسلمين من مغتصبيها، وحتى يسترد القدس من المعتدين عليه، والنصر فى حطين جعل ما بعده أسهل وأيسر بالنسبة لصلاح الدين وجنوده، فلم يواجهوا مقاومة تذكر، اللهم إلا فى صور، ثم فى عكا كما سيلى، فصلاح الدين فى حطين "خرق حدود الخوف من الفرنج وقوتهم، واجتاز حدودهم وكسر شوكتهم، وقضى على ملك ظنوه أبدياً، فبعد أن كان العرب- المسلمون يرجفون خوفاً من الفرنجة، انقلب الوضع بعد حطين، وزرع النصر المؤزر الذى تحقق

الخوف فى قلوب الفرنجة من بأس صلاح الدين الذى امتازت تحركاته عسكرياً بالسرعة الخاطفة، والضربات السريعة المتلاحقة. وهكذا اتجهت جيوشه شرقاً وغرباً وشمالاً تدك حصونا شيدها الفرنجة، وتهدم قلاعاً بنوها، وتستعيد أراضى احتلوها، وتسترد حقوقا انتهكوها، وفى شهور تساقط ما أقامه الفرنجة فى سنوات، ففى الشهور الثلاثة التى تلت موقعة حطين وحتى فتح بيت المقدس استطاع صلاح الدين أن يمحو من خريطة الشرق العربى أكثر معالم الاحتلال الصليبى الذى دام نحو قرنين من الزمان".

وفى اليوم التالى لموقعة حطين، استسلمت الأميرة إشيفا كونتيسة طرابلس، وسلمت طبرية إلى صلاح الدين، بعد أن تأكدت أنها لن تتلقى عوناً أو دعماً من بنى قومها المهزومين، وعاملها صلاح الدين بكرم ومروءة فخرجت بمالها ورجالها ونسائها وسارت إلى طرابلس بمالها وحالها حسب تعبير المؤرخ "أبو شامة"

كان من المتوقع أن يسير صلاح الدين من حطين إلى بيت المقدس، ولو سار إليه لافتتحه فى سهولة، ولكنه لم يفعل، وترك المؤرخين يتجادلون حول تصرفه هذا، بعضهم أيده ودافع عنه، وبعضهم حاول النيل منه مشيراً إلى أن المدينة خلت عندئذ ممن يدافعون عنها، ومن يستطيعون حمايتها، "إذ لم يبق بها سوى النساء والرهبان".

على العكس من ذلك، توجه صلاح الدين إلى الاستيلاء على مدن الفرنجة على الساحل، حتى يقطع خط اتصالهم مع الخارج فى غرب أوروبا مصدر الدعم الرئيسى لهم بالرجال والسلاح، وهو الدعم الذى كان يمدهم بماء الحياة ويضمن لهم القدرة على المقاومة، وعلى البقاء، كانت "عكا" هى

المدينة التى اختار أن يوجه إليها ضربته التالية، فتحرك إليها بمعظم قواته المنتشية بالنصر والمستعدة للاستشهاد.

وفى الثامن من يوليو تلقى صلاح الدين عرضاً باستسلام المدينة، وتملكها رسميا بعد يومين فقط، وأقر تأمين أهل المدينة على أنفسهم وأموالهم، وتركهم يختارون إما الإقامة فيها أو الخروج منها.

أقام صلاح الدين فى عكا، وانطلقت قواته تحرر مدناً وقلاعاً فى الجليل، فزحفت إلى الناصرة، وقيسارية، وحيفا، وصفورية، ومعليا، والفولة، والشقيف، وسبسطية، والطور، وتبنين، وغيرها وحررتها جميعاً. ومن مصر قدم -فى هذه الأثناء- الملك العادل شقيق صلاح الدين فحاصر يافا ثم حررها، كما حرر المجدل. أما الناصر صلاح الدين فخرج من عكا متوجهاً إلى صيدا فدخلها، كما استسلمت له بيروت بعد حصار قصير. أما صور فقد كان لها شأن آخر، نتوقف عنده بعد قليل، إذ قاومت واستعصت فخلفها صلاح الدين وراءه.

لم ينقض شهر أغسطس 1187، حتى كان صلاح الدين وقواده قد استعادوا من الفرنجة وانتزعوا من أيديهم جنوبى طرابلس، ومدن وقرى وقلاع فلسطين والساحل، بحيث لم يستطع الفرنجة البقاء قابضين إلا على صور وعسقلان وغزة، وعدد آخر من الحصون المتناثرة والمنعزلة، والتى لا تمثل قيمة عسكرية كبيرة، هذا بجانب إمارتى طرابلس وإنطاكية.

وكان من عادة صلاح، حين يفتحُ بلداً أو يستولى على حصن، أن يترك أهله من الفرنجة أحراراً يبقون فيه إن أرادوا أو يخرجون منه إن شاءوا ليتوجهوا إلى حيث يريدون وقد أدى هذا إلا أن يتدفق أغلب الخارجين من

هذه المدن والقلاع على صور، وهى مدينة حصينة، كان تحصينها مضرب المثل فى ذلك الوقت، وقد "اجتمع فيها كل أفرنجى بقى فى الساحل". وزاد هذا فى قدرة المدينة على مقاومة صلاح الدين ودفعه عنها خاصة بعد أن جاءها -فجأة- فى منتصف يوليو 1187 تقريباً الأمير كونراد دى مونتفرات، الذى وصل إلى المدينة وهى تتأهب للاستسلام لصلاح الدين. وبعد أن وبخهم، ودفعهم إلى الصمود مجدداً بدأ فى تجديد تحصيناتها، وحفر فيها الخنادق وأقام الأبراج، حتى أصبحت مركزاً حصيناً كما أضحت قاعدة للحملة الصليبية الثالثة كما سيمر بنا، فيما بعد.

وبعد فوات الأوان، حاول صلاح الدين أن يستدرك أمر صور، وحاول أن يحتال على الأمير كونراد، فأحضر أباه الذى كان أسيراً فى دمشق، وأغراه بإطلاق سراحه مقابل استسلام المدينة. رفض كونراد العرض، وقال إنه لن يتخلى عن حجر واحد من حجارة صور، ولو فقد أباه، الذى يكفيه ما عاشه من العمر وليقتله السلطان إن شاء.

عندئذ لم يجد صلاح الدين مفراً من الرحيل عن صور، التى "لو استطاع الاستيلاء عليها لكان فى حكم المُسَلم به طرد كل الصليبيين من الساحل الشامى الذى يحتلونه، قبل وصول الحملة الصليبية الثالثة".

◎ أرثوذكس بيت المقدس

حين استعصت عليه صور توجه صلاح الدين إلى عسقلان، وظهر أمامها فى سبتمبر 1187، وعسقلان هى عروس فلسطين ومفتاحها من ناحية الجنوب، وهى بوابة القدس، وقد حمل السلطان الناصر معه اثنين من أسرى حطين هما الملك جى لوزجنان، ومقدم الداوية جيرار اللذان دعيا أهل

المدينة إلى الاستسلام لصلاح الدين، ولكن أهل عسقلان تجاهلوا الدعوة ودافعوا عنها ببسالة، ما لبث أن تراجعت تحت ضغط قوات صلاح الدين، ثم استسلمت له. كما استسلمت حصون "الداوية" في غزة والقطرون وبيت جبريل، وحَررت هذه القوات الخليل والرملة والداروم وبيت لحم.

يسجل المؤرخون أن الشمس انكسفت في اليوم نفسه الذي دخلت فيه قوات صلاح الدين عسقلان. وتحت جناح الظلام الذي خلفه الكسوف استقبل صلاح الدين وفداً من بيت أهل المقدس، فوضوا في مفاوضته حول الشروط التي تستسلم بها المدينة. لم تؤد المفاوضة إلى نتيجة، وخرج الوفد الفرنجي من اللقاء رافضاً شروط صلاح الدين، وأعلن أعضاء الوفد "أن الموت أيسر عليهم من أن يملك المسلمون البيت المُقدس" عندئذ أقسم صلاح الدين أن يأخذ المدينة بحد السيف، ومع ذلك حينما عسكر في 20 سبتمبر أمام بيت المقدس، عامل أهلها بسماحة وكرامة فأذن للنساء والأطفال بالخروج من بيت المقدس سالمين وبالروح نفسها روح السماحة، أعاد صلاح الدين عرضه على أهل بيت المقدس كي يتجنب اللجوء إلى العنف في مدينة لها قداستها وحرمتها عند أهل الأديان جميعاً.

ولكن سكان بيت المقدس ركبوا رءوسهم فأعادوا الرفض بعناد، ولم يجد صلاح الدين مفراً من أن يقرر أنه لن يتركه مكانه حتى يبر بقسمه، وهو أن يأخذ المدينة بحد السيف.

طوف صلاح الدين بيت المقدس خمسة أيام، وهو يسترجع ذكرياتها، وقداستها، وانتهاك حرمتها يوم سقوطها في يد الفرنجة، كما كان يبحث عن نقطة الضعف في تحصينات أسوارها وبعد هذا الاختبار استقر

رأى صلاح الدين على تركيز هجومه على الناحية الشرقية من بيت المقدس، عند باب العمود، أو كنيسة صهيون. وفى جسارة لم تكن تنقصهم نجح رجال صلاح الدين فى الوصول إلى سور المدينة وأحدثوا فيه ثقباً.

"وفى الوقت الذى اشتد فيه هجوم صلاح الدين على بيت المقدس اتسعت رقعة الخلاف داخل المدينة بين طوائف المسيحيين من أرثوذكس وكاثوليك، حتى أن الفريق الأول نادى أنه يفضل الحكم الإسلامى على سيطرة الكاثوليك الغربيين"، وتشير بعض المراجع إلى اتصالات سرية جرت بين صلاح الدين والأرثوذكس فى بيت المقدس الذين تعهدوا بفتح أبواب المدينة، كان الموقف داخل المدينة صعباً من الناحية المعيشية، وكان ميؤساً منه من الناحية العسكرية.

وكان فى قدرة صلاح الدين أن ينقض برجاله على المدينة فيضربها ضربة رجل واحد، ولكنه جاء مدينته فاتحاً وليس غازياً ورأى من فى داخل المدينة أنه من الخير لهم قبول الشروط التى رفضوها من قبل حين عرضها صلاح الدين وهى: احترام الفرنجة فى المدينة، والسماح لمن يشاء منهم بمغادرتها. ولكنه – وقد اصبح فى موقع قوة– رفض المساومة، وطالب أهل المدينة بالاستسلام دون قيد أو شرط، وأخذ يذكرهم بالمآسى والمذابح التى ارتكبها الفرنجة فى عام 1099 حين دخلوا بيت المقدس ولكن الرجل الذى ألقيت بين يديه قيادة الفرنجة داخل بيت المقدس فى هذه الظروف الحرجة رجا صلاح الدين من موقع اليأس أن يمنح المدافعين عن المدينة شروطاً كريمة. وقيل أنه خاطبه قائلاً: "إذا رأينا الموت لا بد منه ، فوالله لنقتل أبنائنا ونسائنا ونحرق ما نملكه من أموالنا وأمتعتنا ولا نتركلكم تغنمون منا

ديناراً ولا درهما ولا تأسرون رجلاً ولا امرأة. فإذا فرغنا من ذلك خربنا الصخرة والمسجد الأقصى وغيرها من المواضع الشريفة، ثم نقتل من عندنا من أسرى المسلمين وهم خمسة آلاف أسير ولا نترك لنا دابة ولا حيوان إلا قتلناه. ثم خرجنا إليكم وقاتلنا قتال من يريد أن يحمى دمه ونفسه وحينئذ لا يقتل الرجل حتى يقتل أمثاله".

◎ سماحة ورحمة ... واحترام المقدسات

من المؤكد أن صلاح الدين كان يعرف ويلمس أن هذه كلمات قائد يائس، ومن المؤكد أيضاً أنه كان يعرف حق المعرفة حقيقة الوضع داخل المدينة من خلال عيونه وجواسيسه الذين كانوا يرصدون الحركات ويسجلون التحركات، ومن المؤكد ثالثاً أنه كان يتوقع تصرفات جنوده لو دخلوا المدينة المقدسة وهم يحملون ذكريات الفظائع التى ارتكبها الفرنجة يوم اغتصبوها، وكان الرجل يخشى وقوع مثل هذه المذبحة البشرية، وكان يُريد أن يعلم الغزاة الغربيين المعتدين درساً عن سماحة العرب- المسلمين واحترامهم لآدمية الإنسان وكرامته، وكان عليه أن يبر بقسمه من جانب، وأن يجنب المدينة مذبحة بشعة من جانب آخر.

كان صلاح الدين يعرف أنه فى موقف قوة والقوى يعرف أن قوته ليست فى حاجة إلى اختبار، بل تدعوه إلى العفو والتسامح وحسن التصرف. وعلى هذا الأساس، استدعى صلاح الدين مجلس شورته الذى لم يمانع فى أن يغادر الفرنجة المدينة مقابل فدية قدرها عشرة دنانير عن كل رجل غنياً أو فقيراً، وخمسة عن كل امرأة ودينار واحد عن كل طفل ذكراً أو أنثى، على أن تدفع هذه الفدية خلال أربعين يوماً، ومن لم يدفع خلال

هذه المدة يعتبر مملوكاً.

وحتى هذه الشروط تساهل صلاح الدين في تطبيقها بالنسبة لفقراء الفرنجة، كما ترك أغنياء المدينة ورجال الدين فيها يخرجون منها وقد حملوا معهم متاعهم وكنوزهم مهما كانت ثمينة.

كان يوم الفتح -فتح القدس- يوماً مشهوداً إنه يوم الثانى من أكتوبر 1187 الموافق للسابع والعشرين من رجب عام 583 هـ أى يوم الإسراء والمعراج الذى قال فيه القرآن الكريم "سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد القصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا، إنه هو السميع البصير". فى هذا اليوم ارتفعت رايات ونكست رايات، هلل العرب- المسلمون فرحاً وسعادة بالنصر المؤزر، وتصايح الفرنجة حسرة وتفجعاً على ما جرى لهم، ووقف التاريخ يسجل صفحة رائعة من صفحات التسامح والإنسانية والترفع عن شهوة الثأر والانتقام، وقد اعترف بذلك جميع المؤرخين، ومن بينهم المؤرخون اللاتين السابقون والمؤرخون الغربيون المعاصرون، ولا بأس من أن نسجل هنا شهادة المؤرخ الكبير "ستيفن رنسيمان" التى سجلها فى ختام الجزء الثانى من موسوعته "تاريخ الحروب الصليبية" وفى الكتاب الخامس الذى عنوانه "انتصار المسلمين"كتب رنسيمان":

"الواقع أن المسلمين الظافرين اشتهروا بالاستقامة والإنسانية، فبينما كان الفرنج منذ ثمان وثمانين سنة يخوضون دماء ضحاياهم، لم تتعرض الآن دار من الدور للنهب، ولم يحل بأحد من الأشخاص مكروه إذ صار رجال الشرطة بناء على أوامر صلاح الدين، يطوفون بالشوارع والأبواب

يمنعون كـل اعتـداء يقـع علـى المسـيحيين".

ويختتـم المؤرخ الكبيـر شـهادته بصـورة فـى منتهـى الإنسـانية، فيقـول: "أعلـن صـلاح الديـن أنـه سـوف يُطلـق سـراح كـل شـيخ، وكـل امـرأة عجـوز، ولما أقبـل نسـاء الفرنـج اللائـى افتديـن أنفسـهن، وقـد امتـلأت عيونهـن بـالدموع فسـألن صـلاح الديـن أيـن يكـون مصـيرهن، بعـد أن لقـى أزواجهـن أو آبـاؤهن مصرعهـم أو وقعـوا فـى الأسـر، أجـاب بـأن وعـد بإطلاق سـراح كـل مـن فـى الأسـر مـن أزواجهـن، وبـذل للأرامـل واليتـامى مـن خزانـة العطايـا كـل بحسـب حالتـه، والواقـع أن رحمتـه وعطفـه كـان علـى نقيـض أفعـال الغـزاة المسـيحيين فـى الحملـة الصليبيـة الأولى".

أمـا سماحـة صـلاح الديـن الدينيـة فتتـأكد برفضـه مطلـب بعـض المسـلمين الذيـن دعـوا إلى هـدم كنيسـة القيامـة، فنهرهـم، ودعـاهم إلى احـترام المقدسـات المسـيحية فـى بيـت المقـدس، وفـى الوقـت نفسـه أعـاد السـلطان النـاصر المسـجد الأقصـى وقبـة الصخـرة إلى سـابق عهدهمـا، قبـل أن يعبـث فيهمـا ويخربهمـا الفرنجـة.

كـان لتحريـر بيـت المقـدس صـداه العميـق فـى البـلاد العربيـة– الإسـلامية وتبـارى الأمـراء فـى تهنئـة صـلاح الديـن كمـا تبـارى الشـعراء فـى مدحـه وتـمجيد أفعالـه وأعمالـه، ودون أن نخـوض فـى هـذا كلـه، ودون أن نضـرب عنـه صفحـاً بالكـامل يكفـى أن نجـتزىء مـن أول خطبـة ألقيـت فـى الأقصـى بعـد تحريـره، وكـانت فـى يـوم الجمعـة الرابـع مـن شـعبان عـام 583هـ، وقـد ألقاهـا القـاضى أبـو المعـالى محمـد بـن علـى ابـن زكـى الديـن الدمشـقى، وحضـر الصـلاة السـلطان النـاصر، جـاء فـى هـذه الخطبـة فـى الثنـاء علـى صـلاح

الدين والدعاء لـه مـا يلـي:

"اللــهم وأدم سلطان عبـدك الخاضع لهيبتـك الشـاكر لنعمتـك المعـترف بموهبتـك، سـيفك القـاطع، وشـهابك اللامـع، والمحـامى عـن دينـك، المدافـع والـذاب عـن حرمـك الممـانع، السـيد الأجـل الملـك النـاصر جـامع كلمـة الإيمـان، وقـامع عبـدة الصلبـان، صـلاح الدنيـا والديـن، سـلطان الإسـلام والمسـلمين، مطهـر بيـت المقـدس أبـى المظفـر يوسـف بـن أيـوب، محيـى دولـة أمـير المؤمنـين" وهكـذا تـمضى الخطبـة إلى نهايتهـا دعـاء لصـلاح الديـن وتقديـراً لأمجـاده، وقـد أحضـر للمسـجد الأقصـى المنـبر الـذى صنعـه نـور الديـن محمـود وهـو المنبر الـذى تعـرض أخـيراً وعلـى يـد الصهاينـة فـى أغسـطس 1968 للحـرق.

✠ ✞ ✠

عكا طروادة العرب

◎ عدوان ثلاثى

"القدس لنا كما هو لكم، وهو عندنا أعظم مما هو عندكم فإنه مسرى نبينا ومجتمع الملائكة، فلا يتصور أن ننزل عنه، ولا نقدر على التلفظ بذلك بين المسلمين، وأما البلاد فهى أيضاً فى الأصل لنا، واستيلاؤكم كان طارئاً عليها لضعف من كان بها من المسلمين، فى ذلك الوقت، وما أقدركم الله على عمارة حجر منها ما دام الحرب قائماً".

كلمات حادة قاطعة، لا يقولها إلى قائد فى قامة صلاح الدين، حتى وهو يفاوض أعداءه. فهذا الموقف الصريح والنهائي جاء فى رسالة بعث بها إلى ريتشارد قلب الأسد وهو يفاوضه، وقد فهم صلاح الدين -عبر مراحل جهاده- أن المفاوضة أخذ وعطاء وتنازل متبادل، لكن هناك حدود للتنازل، تفرض عدم المساومة على مبدأ، كما تفرض عدم التسليم فى حق، كان الناصر على دراية عميقة بالمبادئ التى يدافع عنها، وبالحقوق التى لا يجوز التفريط فيها فهى أمور لا يقدر على التلفظ بها بين المسلمين الذين وثقوا فيه، وأخلصوا له، والتفوا حول رايته دفاعاً عن المبادئ نفسها وتمسكاً بالحقوق ذاتها. ولما كان يعرف أن هذا مصدر قوته، ومصدر سلطته فإنه كان يعرف جيداً ما لا يجوز التفريط فيه.

إن هذه الرسالة ورسائل أخرى عديدة تشبهها تحدد معالم الفترة الأخيرة من جهاد صلاح الدين، فترة ما بعد تحرير القدس إلى أن وافته منيته،

وربما كانت هذه الفترة هى أقسى سنوات الجهاد الذى خاضه السلطان صلاح الدين وكانت من أمجدها، فقد فتح تحرير القدس واستعادتها من الفرنجة عيون أوروبا على خطر كبير يتهدد الإمارات التى أقامتها فى الشرق طوال حوالى قرن، وبقدر فرحة وابتهاج العرب -المسلمين باستعادة القدس، كان حزب أوروبا التى سرعان ما تنادى ملوكها وأمراؤها لتلبية "الروح الصليبية" التى سادتها وتعبير "الروح الصليبية" لا صلة له برمز الفداء والخلاص، ولكنه يعبر عن حالة معينة من البغضاء والكراهية والحقد ضد الآخرين، وكان الآخرون فى نظر أوروبا عندئذ هم العرب- المسلمون.

الأجواء التى سادت أوروبا عقب تحرير بيت المقدس والقضاء على المملكة الفرنجية فيه تشبه الأجواء التى سادت قبل الحملتين الأولى والثانية، وإن كانت روح التعصب فى هذه المرة أوضح. فى الحملة الأولى، كانت الأجواء السائدة هى أجواء دعوة وأمل قد يتحقق أو لا يتحقق، وفى الحملة الثانية، كان التنادى بسبب سقوط الرها، أما فى هذه المرة فإن السبب هو بيت المقدس الذى كان الشعار والستار لتلك الحملات والحروب، ونجاح العرب- المسلمين فى استرداد بيت المقدس يعنى القضاء على كل الجهود التى بذلت منذ خطاب البابا أوروبان الثانى أمام مجمع كليرمون فى 27 نوفمبر 1095، يتحدث عن صدى تحرير القدس فى أوروبا المؤرخ "ميخائيل زابوروف" فى كتابه "الصليبيون فى الشرق"، فيقول:

"إن نبأ سقوط مملكة القدس الذى وصل إلى أوروبا الغربية قد كان بمثابة صاعقة فى سماء صافية. إن البابا أوروبان الثامن، (لا الثانى بالطبع)، ما إن عرف بما حدث حتى توفى من وقع الصدمة ودعا خليفته البابا

غريغوريوس الثامن، بمنشور بابوى بتاريخ 29 تشرين الأول (أكتوبر) 1187 وزعه من فيرارا، الكاثوليك إلى حملة صليبية جديدة وأمرهم بالصيام كل أسبوع فى يوم الجمعة على امتداد خمس سنوات، كما أمرهم بالامتناع كلياً فى هذه الحقبة من الزمن عن أكل اللحم مرتين فى الأسبوع والدعوة إلى الحرب الصليبية... تلقفها البابا التالى كلمينت الثالث، الذى حل بعد شهرين محل البابا غريغريوس الثامن".

ويبدو أن نبأ تحرير القدس وسقوط مملكتها الفرنجية قد هز مكانة البابوية فى غرب أوروبا، ومن أجل دعم مكانة البابوية المتداعية، ومن أجل إيقاظ الحماسة الدينية، فإن أخلص خدم الكرسى البابوى نذر التطواف "مشياً على الأقدام فى عموم فرنسا وإنجلترا وألمانيا".

ويسجل "زابوروف" ملاحظات ذكية بشأن التغيرات التى لحقت بـ "الحملة الصليبية الثالثة" التى امتدت ما بين 1189، 1192. فقد اشترك فيها أساساً الإقطاعيون الكبار والفرسان من بلدان أوروبا الغربية، وقامت بدور فعال فيها الدول الإقطاعية التى كانت مصالحها التجارية فى الشرق قد اكتسبت مكاناً مهم فى سياستها، ومنذ أواخر القرن الثانى عشر صار الفرسان القوة الجماهيرية الأساسية فى " الحركة الصليبية" ومن جانب آخر، أخذت الأهداف الدينية من هذه الحملات تتراجع أكثر فأكثر إلى المؤخرة، وأخذت مطامع الفتح عند المشتركين فيها تبرز أكثر فأكثر. كذلك أصبح سعى دول أوروبا الغربية إلى السيادة فى منطقة البحر الأبيض المتوسط من أهم الحوافز الداخلية للحملات الصليبية، منذ أواخر القرن الثانى عشر أى منذ الحملة الثانية. وفى الوقت نفسه، بدأت تطغى على هذه الحملات روح

المنافسة بين الدول الأوروبية الغربية فى صراعها من أجل الهيمنة الاقتصادية والسياسية والعسكرية فى منطقة البحر الأبيض المتوسط. وتبدى هذا بوضوح بين الدول الثلاث الرئيسية التى اشتركت فى الحملة الثالثة وهى إنجلترا، وفرنسا، وألمانيا. فقد قرر ملوك هذه البلاد حمل الصليب، وهؤلاء الملوك هم: هنرى الثامن ملك إنجلترا، فليب الثانى (لقب فيما بعد بفليب أوجست) ملك فرنسا، والإمبراطور فردريك الأول بربروسا إمبراطور ألمانيا.

اتفق ملكا إنجلترا وفرنسا على أن يتناسيا ما بينهما من عداوة، على أن تخرج جيوشهما معاً إلى القدس. ولكن هذا الاتفاق لم يتم تنفيذه فوراً، إذ تجددت الحرب بينهما. وفى هذه الأثناء، وفى يوليو 1188 مات هنرى الثانى ملك إنجلترا فخلفه ابنه ريتشارد قلب الأسد. وفى صيف 1190 أبحر ملكا إنجلترا وفرنسا متجهين إلى القدس، لكن كل منهما قضى الشتاء (سبتمبر 1190، مارس 1191) فى جزيرة صقلية.

أما فردريك بربروسا، الذى وصفه البعض بأنه "أعجوبة الدنيا" فى عصره، فقد كان له مع الحملات "الصليبية" شأن آخر. فقد صحب عمه كونراد الثالث فى الحملة الثانية التى تحطمت على صخرة المقاومة العربية- الإسلامية فى دمشق، والتى جاءت إلى الشرق بعد تحرير الرها على يدى عماد الدين زنكى. ووقتئذ كان فردريك حاكم "سوابيا" شاباً قوى البنية، وتولى قيادة فريق النبلاء فى الحملة، التى شارك فيها أيضاً لويس السابع ملك فرنسا. ومن هذه الحملة الفاشلة اكتسب بربروسا خبرة فى الإبحار إلى الشرق وفى طبيعة القتال على أرضه، كما تعلم من فشله من قبل، ولذلك

لـم يكـن فـى عجلـة مـن أمـره، بـل سـعى إلى التدقيـق فـى ترتيـب شـئون حملتـه، وتزويدها بكل مـا يسـتطيع مـن سـلاح وعتـاد، فضـلاً عـن المقـاتلين.

لـم يكـن هنـاك خـلاف كبير مـع أحـد يؤخـر عمـل فردريـك، الـذى بـدأت قواتـه تتجمـع منـذ ربيـع 1189، وكـانت أول الجيـوش "الصليبيـة" التـى خرجـت إلى الشـرق، فـى الحملـة الثالثـة. وقـد تـمتعت هـذه القـوات العسـكرية بنظـام عسـكرى دقيـق، وتعتبر هـذه الدقـة جـزءاً مـن الطـابع القومـى الألمـانى. وكـان عـدد هـذا الجيـش ضخمـاً وتراوحـت تقديراتـه بـين مـائتى ألـف وسـتـمائة ألف مقـاتل.

قـرر بربروسـا أن يقـود جيشـه إلى فلسـطين بـراً، وقـد تعـرض نتيجـة لذلـك إلى مصـاعب جمـة فـى أراضـى الإمبراطوريـة البيزنطيـة، ممـا دفعـه إلى أن يقـرر مهاجمـة عاصمتهـا القسـطنطينية، وتـم التصـالح بـين الإمـبراطور الألمـانى والإمـبراطور البـيزنطى علـى أن يقـدم الأخـير لـلأول جميـع التسـهيلات التـى تسـاعده فـى الوصـول إلى فلسـطين الشـرق، وفعـلاً وصلـت القـوات الألمانيـة إلى آسـيا الصغـرى، ولكنهـا لقيـت متـاعب جديـدة علـى يـدى سـلاجقة الـروم، وفـى ظـل شـتاء شـديد الـبرودة. مـع ذلـك وصلـت إلى أرمينيـا حيـث أصبـح الطريـق إلى بيـت المقـدس مفتوحـاً أمامهـا. وعندئـذ أيقـن المعـاصرون لهـذه الأحـداث أن بربروسـا سـينجح فـى الوصـول إلى بيـت المقـدس، كمـا توقعـوا أنـه سـيحرز النصـر علـى صـلاح الديـن، الـذى كـان قـد تلقـى نبـأ تحـرك هـذه القـوات الكبـيرة منـذ وصولهـا إلى الأراضـى البيزنطيـة. وقـد أثـار ذلـك قلـق السـلطان النـاصر الـذى سـارع إلى طلـب النجـدة مـن القـوى العربيـة- الإسـلامية الأخـرى، وفـى الوقـت نفسـه اتبـع الأسـلوب الـذى يُعـرف فـى المصطلحـات الحديثـة بــ "الأرض

المحروقة"، عن طريق إخلاء أو تدمير بعض المواقع التى تخوف من سقوطها فى يد الأعداء واستخدامهم لها فى حربهم ضده، ولذلك هدم أسوار طبرية، وصيدا وجبيل ونقل أهلها إلى بيروت، كما هدم يافا وأرسوف وقيسارية.

وفجأة وقع حدث لم يكن يخطر ببال أحد ففى ١١ يونيو ١١٩٠ مات بربروسا غرقاً، وهو يعبر نهراً صغيراً يسمى "السالف"، وأدى ذلك إلى إشاعة الاضطراب فى قواته، وتدهورت أحواله، وعاد معظم أمرائه إلى أوروبا.

وباختصار لقد فشل الجيش الألمانى الكبير فى تحقيق الهدف الذى كان يرنو إليه، وهو هزيمة صلاح الدين واحتلال بيت المقدس مرة أخرى ومن نجح منهم فى الوصول إلى الشام كانوا فى مرحلة يرثى لهم، لدرجة أن المؤرخ ابن واصل صاحب كتاب "مفرج الكروب فى تاريخ بنى أيوب" وصفهم بأنهم "حملة عصى وركاب حمير". وقد وصل جزء من هؤلاء إلى عكا وشاركوا فى حصارها إذ كان بقايا الفرنجة فى الشرق، الذين قادهم الملك جى لوزجنان بعد أن أطلق صلاح الدين سراحه من أسره، قد تمكنوا فى أغسطس ١١٨٩ من احتلال مواقع لهم فى مواجهة عكا، عند "تل الفخار"، الذى يبعد عن المدينة ميلاً واحداً إلى الشرق. وأخذت الإمدادات تتوالى منذ أوائل سبتمبر. وحينما وصل صلاح الدين فى جزء من قواته، وأقام على مسافة قصيرة إلى الشرق من معسكر الفرنجة. وفوجاً بعد فوج وأسطولاً بعد أسطول وصلت الجيوش من الغرب، واستطاعت إكمال الحصار البرى حول عكا. ولم ينقطع تماماً اتصال صلاح الدين بقواته فى داخل المدينة الفلسطينية الصغيرة القابعة على رأس داخل فى البحر إلى جهة

الجنوب حيث تجمعت شعوباً للحرب لم تتجمع قبلاً فى أى مكان من الدنيا. وتعتبر معركة عكا من المعارك الكبرى فى العصور الوسيطة. وأصبحت عكا فى عالم الأساطير والقصص طروادة العرب.

◎ متطوعون من مختلف الجهات

طوال فصل الشتاء ظل الجيشان، جيش العرب المسلمين وجيش الفرنجة يواجه كل منهما الآخر، دون أن يجسر أحدهما على خوض معركة كبيرة وطلب صلاح الدين النجدات من جميع أنحاء البلاد التى يسيطر عليها، ولم يتردد فى الكتابة إلى قادة المسلمين فى مراكش وأسبانيا، فلم يتلق منهم سوى كلمات التعاطف.

ولما ارتحل الشتاء بدأت المناوشات بين الجيشين المتواجهين، كانت صغيرة أحياناً وكبيرة فى أحيان أخرى، ولم يستطع الفرنجة تحقيق تقدم يذكر، بل لقوا فى بعض الجولات هزائم واضحة. وفى الوقت نفسه، كان سكان عكا قادرين على الصمود والاستبسال ويرفضون الاستسلام، خاصة حين تكسرت محاولات الفرنجة لاختراق أسوار المدينة. ولكن مستشارى صلاح الدين رأوا إبعاد معسكرهم أكثر عن عكا، فنقلوه إلى "تل الخروبة".

وكانت قوات الفرنجة تتطلع فى يأس إلى وصول القوات الفرنسية والإنجليزية التى تأخر إقلاعها من بلادها. وأخيراً، وصلت قوات فيليب أغسطس فى 20 أبريل 1191، ووصل ريتشارد قلب الأسد فى 8 يونيو من العام نفسه، وشاركت هذه القوات فور وصولها فى الهجمات على عكا التى ظلت صامدة، وأظهرت حاميتها شجاعة فائقة، ولم تتخلف عن مجاراتها القوات التى كانت تقوم عن طريق البحر بنقل المؤن والإمدادات إليها، وقام

الأسطول الذى توجه إلى مياه عكا من مصر بدور رائع فى هذه العمليات "فقد أنقذ العسكر المصرى عكا مراراً، وزودها بالسلاح اللازم، وسد النقص الحاصل فيها من الرجال". وكذلك اشتركت فى الحصار جيوش مدن الشام التى كان عليها العبء الأكبر فى معارك صلاح الدين البرية .. واشترك فيها متطوعون من مختلف جهات العالم الإسلامى، من العراق والمغرب ومن بلاد العجم.

وعند أسوار عكا تجددت خلافات الفرنجة التى ثارت من قبل، وبالمثل، فإن قادة قوات صلاح الدين لم يكونوا على رأى واحد، بل تعددت آراؤهم، واختلفت وتناقضت. ودب الضعف فى بعضهم ممن رأوا أنهم لا قدرة لهم على مواجهة الأعداد الكبيرة التى حشدها الفرنجة. وبين هذه الآراء المتعددة، افتقد صلاح الدين الحسم، بل بدا متردداً، وظهر هذا فى نقله مواقع معسكر قواته أكثر من مرة، كما بدا يشكو من بعض العلل والأعراض وقد كان مثل هذا الحصار الطويل، واستمرار المواجهة بين الجيشين المتقاتلين من الأمور التى تعرفها المعارك فى ذلك الوقت، خاصة وأن قوات الجانبين كانت كبيرة العدد كثيرة الاحتياجات، وأن الاشتباكات كانت أحياناً شبه يومية، وفى ظل ذلك كله، لم تضعف إرادة سكان عكا على المقاومة. وأرسلوا له فى 7 يوليو 1191 يقولون:

"قد تبايعنا على الموت، ونحن لا نزال نقاتل حتى نقتل، ولا نسلم البلد ونحن أحياء فأبصروا كيف تصنعون فى شغل العدو عنا، ودفعه عن قتالنا. فهذه عزائمنا، وإياكم أن تخضعوا لهذا العدو أو تلينوا له، فأما نحن فقد فات أمرنا"

ولكن الفرنجة كانوا يدركون أن هذه معركة فاصلة، وان خسارتها تعنى إزالة كل أثر لهم فى الشرق، وفى مدى غير بعيد. ولذلك، قاتلوا يائسين، ورأوا أنه ليس أمامهم سوى الانتصار أو الفناء. ولذلك واصلوا القتال، وكثفوا هجماتهم المتلاحقة على أسوار المدينة. استشعر أهل عكا الخطر ورأوا أن مدينتهم توشك على السقوط، وخشوا من عواقب ذلك، ويبدوا أنهم اتصلوا بالقوات المهاجمة، ويظهر ذلك من الرسالة الأخيرة التى بعثوا بها إلى صلاح الدين وأبلغوه فيها: "إن أهل البلد ضاق بهم الأمر، وتيقنوا أنه متى أخذ البلد عنوة ضربت رقابهم عن آخرهم، وأنهم قد صالحوا الفرنج..." وأبلغوه شروط هذا الصلح الذى أزعجه وهم برفضه، ولكن قوات الفرنجة كانت أسرع منه، إذ دخلت المدينة ورفعت أعلامها على مبانيها الرئيسية، وأشعلوا النيران على الأسوار، وكان ذلك فى الثانى عشر من يوليو 1991.

لم يجد صلاح الدين مفراً من الالتزام بشروط الصلح التى تم الاتفاق عليها وبدأ فى تنفيذها فعلاً، وحينما تلكأ الفرنجة، فى إحدى مراحل التنفيذ فى الوفاء بالالتزامات الملقاة عليهم، رفض السلطان الوفاء بما بقى عليه من التزامات، وحينئذ ارتكب ريتشارد قلب الأسد مذبحة فى ثلاثة آلاف من الأسرى العرب- المسلمين الذين ربطهم بالحبال وأمر بقتلهم طعناً وضرباً.

سقطت عكا وحزن السلطان حزناً شديداً، ربما ضاعف عليه مرضه، لكن حامية المدينة سجلت موقفاً رائعاً بشجاعتها النادرة، أما الجيش الذى قاده صلاح الدين بنفسه فقد كان صعباً عليه أن يظل تحت السلاح

طوال مدة الحصار على عكا، ومع ذلك فإن الفرنجة لم يستطيعوا تحطيم هذا الجيش، بدليل أنهم عجزوا عن استرداد ما خسروه فى حطين، وبعدها. ولكن الهزيمة نجحت فى إقناع الفرنجة أنفسهم أن صلاح الدين مثله مثل أى قائد آخر، يمكن أن يتعرض للهزيمة، بل ربما لاح لهم أن بيت المقدس يمكن احتلاله مرة أخرى.

وتمثل معركة عكا "فترة الانحسار بالنسبة لصلاح الدين، وتجديد القوة بالنسبة للفرنج"، لقد واجه السلطان الناصر، بقوات مذبذبة "ملوك أوروبا وجيوشها، من محاربين ومحاربات مع أسلحتهم وأساطيلهم.." ومع ذلك فقد صمد أمامهم حتى أوقف مدهم، وحجز بينهم وبين القدس التى كانت هدف حملتهم، وبين معظم الداخل من فلسطين، ومنع تحويل انتصارهم فى عكا إلى تغيير حاسم فى ميزان القوى".

فى 23 أغسطس 1191 غادر ريتشارد عكا ... أما فليب أغسطس فكان قد أبحر من صور فى 3 أغسطس نفسه، أى أن قلب الأسد وحده من ملوك الحملة الثالثة، هو الذى بقى فى فلسطين ليواجه صلاح الدين.

✠ ✠ ✠

من عسقلان إلى دمشق

◎ فى الرملة

خلا الجو أمام ريتشارد قلب الأسد، فقد أصبح بلا منازع زعيم الحملة "الصليبية" الثالثة أو ما تبقى منها، وقد تبقى منها خاصة فى جانبه الكثير، والذى وصل إلى 100 ألف مقاتل، وقيل إنه 300 ألف مقاتل، كانوا على الأرجح مبعث أمل لدى قائدهم فى أن يتوج انتصار عكا بالنصر الأكبر الذى هدف إليه، وهو استعادة بيت المقدس، ويبدو أن قلب الأسد حاول أن يقلد صلاح الدين، حين اتخذ نصر حطين خطوة لتحرير المدن والحصون والموانى التى كان الفرنجة قد استولت عليها، وذلك قبل أن يتوجه لتحرير القدس، فقد قرر قلب الأسد التوجه إلى عسقلان، وهى مفتاح فلسطين الجنوبى، واحتلالها ثم الزحف منها على بقية المدن الساحلية الفلسطينية أى ما بين عسقلان وعكا.

رد صلاح الدين على خطة ريتشارد بخطة مضادة ذات شعبتين الأولى هى استخدام أسلوب "الأرض المحروقة" من جانب واستخدام حرب الفدائيين من جانب آخر، أمر السلطان بإخلاء مدن الساحل الفلسطينى من ساكنيها، وتدمير أسوارها وحصونها، وردم آبارها حتى إذا وقعت فى أيدى الأعداء لا تكون مصدر قوة لهم، وبدلاً من خوض معركة كبيرة ضد قوات ريتشارد، أمر صلاح الدين وحدات خاصة وخفيفة من جيشه بالقيام بمناوشات وعمليات ترهق العدو نفسياً وعسكرياً، حتى يعرف أنه ليس فى

حالة استقرار، أخذ جيش صلاح الدين "ينقض على أعدائه في مناوشات خفيفة يرغمهم على منازلته فيها إرغاماً، ويتغلب عليهم فيها بمهارته وشجاعته وبراعة خططه، حتى أصبح شغل الفرنجة الشاغل حماية أنفسهم من هذه الغارات الصغيرة المفاجئة على طلائعهم أو رسلهم أو كتائبهم الصغيرة أو أطراف معسكرهم نفسه، تارة من الأمام وتارة من الخلف، وتارة أخرى من اليسار".

لقد واصل صلاح الدين الجهاد والقتال بأسلوب يتلاءم ووضع قواته التي خرجت من معركة عكا مُثخنة بالجراح، بينما بثت المعركة نفسها شعوراً بالقوة لدى قوات ريتشارد، الذي لم يكن بدوره يدع الفرصة تفوته، فرصة جر صلاح الدين وقواته إلى معركة أخرى لم يكونوا مستعدين لها، وهذا ما حدث أمام "أرصوف" في السابع من سبتمبر 1191، بدأت المعركة بهجوم خاطف شارك فيه صلاح الدين نفسه، لكن جيش ريتشارد استوعب هذا الهجوم وتخلى عن وضعه الدفاعي، وكان ذلك مفاجأة لقوات صلاح الدين التي تفرق جمعها، وخسرت عداداً كبيراً من الجنود في حين كانت خسائر العدو طفيفة.

رفعت نتيجة معركة أرسوف أسهم ريتشارد في حين عرضت سمعة صلاح الدين لمهانة جديدة، بعد ما حدث في عكا، لقد تقدم القائد في العمر وساءت صحته وفقد جزءاً من حيويته، ومن فاعليته، ومن سيطرته على القادة التابعين له، ولكن صلاح الدين لا يزال قادراً على التخطيط، وعلى الجهاد، ولما كان يعرف أن المعركة أساساً هي معركة بيت المقدس، وأن المعارك الأخرى هوامش وتوابع، ولما كان يعرف أن ريتشارد يركز

اهتمامه على بيت المقدس، فإنه أعاد تنظيم قواته، وتوجه بها إلى الرملة على الطريق إلى القدس، وقد استفاد صلاح الدين في ذلك الوقت من حالة التعب التي لحقت بقوات ريتشارد، وأجبرته على التزام الراحة في يافا بدلاً من الانتقال من أرسوف إلى معركة أخرى.

في الرملة عقد صلاح الدين مجلس الحرب، وطرح على كبار قادته سؤالاً عما يستطيعون القيام به؟ سادت الاجتماع الدعوة إلى تخريب عسقلان بعد إخلائها من سكانها، وكان الدافع إلى هذا التفكير هو الظن أن ريتشارد بعد أن استولى على عكا ويافا فإن عسقلان ستكون هدفه، ومنها يثب إلى القدس حيث إن يافا تتوسط القدس وعسقلان، وقال المدافعون عن هذا الرأى إن من الصعب الحفاظ على القدس وعسقلان معا!

هذا النوع من التفكير يبين فزع قوات صلاح الدين وقادة جيشه من العدو، لقد أصبح هؤلاء في وضع نفسي قلق، وفي حالة ضعف ولم يكن هذا يخفى على صلاح الدين، ولم يكن من الداعين إلى تخريب عسقلان، فدعا قادة جيشه إلى دخول عروس فلسطين، وعندئذ امتنعوا "بل إنهم ردوا عليه بخشونة غير مألوفة، اعتادوا عليها من الآن فصاعداً وقالوا: إن أردت حفظها فادخل أنت معنا، أو بعض من أولادك الكبار وإلا فما يدخلها منا أحد لئلا يصيبنا ما أصاب أهل عكا".

كان صلاح الدين عندئذ قد فقد سيطرته على قادة جيشه ولم يستطع استمالتهم إلى رأيه وفي تلك الليلة كما يقول ابن شداد لم ينم إلا قليلا، كما دعاه عند السحر إلى خدمته، ودعا ابنه الملك الأفضل أيضا. وشاوره في الأمر، ثم قال صلاح الدين "والله لأن أفقد أولادى كلهم

أحب إلى من أن أهدم من عسقلان حجراً واحداً ولكن إذا قضى الله بذلك وعينه لحفظ مصلحة المسلمين طريقاً فكيف أصنع".

هذه كلمات قائد مغلوب على أمره، ولم يعد فى يده ما يصنعه سوى أنه "استخار الله تعالى، فأوقع فى نفسه أن المصلحة فى خرابها (خراب عسقلان) لعجز المسلمين عن حفظها من الفرنج" إن هذا تبرير من جانب ابن شداد، وهو تبرير لا يستقيم والرواية التى يكملها ابن شداد نفسه مبيناً موقف أهل عسقلان حين بدأ تخريبها إذ "وقع فيه الضجيج والبكاء"، وكان بلداً نضراً خفيفاً على القلب، محكم الأسوار، عظيم البناء، مرغوباً فى سكناه فلحق الناس عليه حزن عظيم، وعظم عويل أهله وبكاؤهم على مفارقة أوطانهم".

إذا كانت هذه حال الناس العاديين، فما بالنا بصلاح الدين نفسه وقد اضطر إلى أن يحث الناس على التخريب خوفاً من أن يسمع العدو فيخفوا إلى المدينة قبل أن يتم خرابها، فيأخذها عنوة وهى عامرة.

◎ دعوة إلى مصالحة

بين عشية وضحاها، أصبحت عسقلان خراباً. وبعد أن لحقت بها الرملة واللد وتساويتا معها فى التخريب، توجه صلاح الدين إلى بيت المقدس كى يتولى بنفسه الإشراف على تحصيناتها ودفاعاتها. أما ريتشارد فقد طال مقامه فى يافا، التى أعاد تعميرها. فى وقت شغلته فيه خلافات فرنجية داخلية، لم يهمل صلاح الدين الاستفادة منها، خاصة حين تلقى عرضاً من كونراد دى مونتفرات الذى استولى على صور، يطلب منه التنازل له عن صيدا وبيروت مقابل مساعدة صلاح الدين فى استرداد عكا.

وقد نجح ريتشارد في وقف هذه المصالحة. كما نجح في الزحف حتى اقترب من بيت المقدس في نهاية ١١٩١، أى في فصل الشتاء وكان شتاء قارساً، شهد بداية المحادثات غير المعلنة إذ طلب ريتشارد من صلاح الدين أن "نصطلح ونستريح من هذا التعب الدائم".

عوامل متعددة دفعت ريتشارد إلى أن يمد يد المصالحة إلى صلاح الدين، قد لا يكون أقلها شأنا أنه استشعر في نفسه قوة، وظن في العرب المسلمين ضعفاً قد يدفعهم إلى قبول ما يعرضه عليهم.

وقد تعددت المكاتبات واللقاءات بين الجانبين. وخلال ذلك، أثبت صلاح الدين مفاوضاً أنه لا يقل مهارة عنه مقاتلاً. وقد تولى المفاوضة نيابة عنه أخوه الملك العادل، الذى كان وزير خارجية ناجحا. وكانت القدس هى محور هذه المفاوضات فقد ظن ريتشارد أنه يستطيع أن ينالها بالمصالحة بعد أن عجز عن الاستيلاء عليها بالقتال. وإن كان في المفاوضات قد حاول أن يتشدد ويهدد بأنه لن يتنازل عن بيت المقدس " ولو لم يبق منا إلا واحد". وكان رد صلاح الدين الحاسم "القدس ... عندنا أعظم مما هو عندكم".

◎ يوم مشهود

وشهدت المفاوضات فصولاً لا تخلو من طرافة، من بينها اقتراح بعقد زواج بين الملك العادل وجوانا أخت ريتشارد، ويشترك الزوجان معاً في حكم فلسطين بما في ذلك بيت المقدس نفسه، ومنذ البداية وغداة مجيء ريتشارد إلى الشرق اقترح عقد لقاء مع صلاح الدين، فكان رده في منتهى الذكاء والحكمة، إذ قال له ما معناه إن الملوك لا يلتقون إلا بناء على جدول أعمال محدد، وعلى أساس من موافقات تم التوصل إليها، ويكون عليهم

فقط إبرامها والتصديق عليها. كما عبر الملك العادل عن ذلك بقوله: "إن الملوك إذا اجتمعوا تُقبح بينهم المخاصمة بعد ذلك، وإذا انتظموا أمر حسن الاجتماع".

لم تكن صلابة موقف صلاح الدين تنبع من فراغ. لقد كانت وليدة سنوات الجهاد والانتصار وابنة الثقة في عدالة الموقف العربي ـ الإسلامي، ونتاج الإيمان العميق بأن هذه الأرض أرض العرب المسلمين، وأن الفرنجة ليسوا إلا دخلاء معتدون، وأن عدوانهم مهما طال لا بد أن ينتهي وأن قوتهم مهما كبرت لا بد أن تنكسر. وما من صاحب حق آمن بذلك إلا وكان النصر في جانبه، مهما كان ثمن النصر كبيراً. وكان صلاح الدين يملك الإيمان والمقدرة والتصميم على أن يواصل الصمود. واعتمد في ذلك على "المغاوير" أو "الفدائيين" الذين كانوا يواصلون عمليات لا تتوقف ضد العدو، وبذلك كان السلطان الناصر يجمع بين القتال والمفاوضة، ويجعل كل منهما في خدمة الآخر وليس على حسابه. مارس صلاح الدين ذلك في وقت دب فيه الخلاف بين قواته، وفي أجزاء من دولته، مما جعله يشعر بالخطر. ولم يخفف عنه في ذلك سوى علمه بأن الفرنجة في الوقت نفسه كانت تنشب بينهم خلافات كبيرة، من بينها الخلاف حول مهاجمة بيت المقدس أو التراجع عنه. لقد كان هناك نوع من توازن الضعف بين الجانبين، اللذين لم يجدا مفر من استئناف المفاوضات بينهما. وفي هذه الجولة رفض صلاح الدين أن يستمع مجرد الاستماع إلى طلب الفرنجة بإعادة بيت المقدس إليهم.

تعطلت المفاوضات بعض الوقت بسبب الخلاف حول عسقلان التي

كان صلاح الدين يريدها فى يد العرب المسلمين، لتكون نقطة تواصل بين مصر وفلسطين. وفى هذه المرحلة من المفاوضات، لم تتوقف المناوشات بل والمعارك، التى لم تكن حاسمة، ولم يكن أحد الطرفين يكسبها على طول الخط. ولكن صلاح الدين استمر فى التمسك بموقفه، مدركاً أن هؤلاء الفرنجة طارئون وليسوا من أهل هذه الأرض، وأنهم مضطرون إلى العودة إلى البلاد التى جاءوا منها. وجعله هذا يفاوض من موضع قوة. وقد تحقق ما كان يتوقعه إذ تدهورت صحة ريتشارد، فى وقت جدت فيه أحداث فى بلاده استدعت عودته من فلسطين، وتحت تأثير ذلك كله تم إبرام "صلح الرملة" فى الثانى من سبتمبر 1192.

نص صلح الرملة على احتفاظ العرب المسلمين ببيت المقدس، على أن يكون مفتوحاً أمام الحجاج الفرنجة، دون دفع أية ضرائب، على أن يكون للفرنجة الساحل من صور إلى يافا، وتكون اللد والرملة مناصفة بين الجانبين، وتكون عسقلان للعرب المسلمين.

◎ مملكة عكا

"كان الناس فى ذلك الوقت فى حاجة إلى مثل هذا الصلح وكان حجم "الحملة الصليبية الثالثة" قد أثار مخاوف العرب المسلمين من نجاحها فى احتلال بيت المقدس مرة أخرى، كما أن المعارك والجولات المستمرة امتدت حوالى أربعة أعوام أرهقت النفوس وأثرت على العمل والإنتاج، لذلك كان يوم الصلح مشهوداً وحسب تعبير المؤرخ الكبير المقريزى الذى قال إن الفرح والسرور ساد الجانبين، الجانب الفرنجى والجانب العربى الإسلامى" لما نالهم من طول الحرب".

إن هـذا الصلـح ينزع بالإضافـة إلى براهـين عديـدة أى طـابع دينـى عـن تلـك الحـروب العدوانيـة، فلـو كـانت حقـاً حـروب صليبيـة أو مـن أجـل تخليـص المقدسـات المسـيحية لما قبلـت الحملـة الثالثـة التخلـى عـن بيـت المقـدس. إن الأمـر منذ بدايتـه وإلى نهايتـه بعـد حـوالى قـرن آخـر كـان أمـر احتـلال واقتصـاد وتجـارة، كـان أمـر دنيـا وليـس أمـر ديـن ولهـذا كـانت الأراضـى السـاحلية أهـم للتجـار الغربيـين مـن القـدس، وهـى بعيـدة عـن السـاحل فـامتلاك الشـريط السـاحلى مـن صور إلى يافا كـان يخدم فـى المقـام الأول التجـارة مـع الشـرق.

ومـا أن أنجـز ريتشـارد "صلـح الرملـة" حتـى رحـل فـى الشـهر التـالى، أى فـى أكتوبـر 1192، عـن فلسـطين، وفـى رحلـة عودتـه غرقـت سـفينته ولكنـه لـم يغـرق، بـل دخـل النمسـا متنكـراً ولكـن تنكـره لـم يمنـع مـن اكتشـاف حقيقته، وحمـل إلى السـجن أو الأسـر، ولـم يفـرج عنـه إلا لقـاء فدية كبيرة.

وكـان ذلـك فـى مـارس 1194، وظـل فـى السـنوات الخمـس التاليـة يواجـه مصـاعب ويخوض معـارك أصيـب فـى إحداهـا بسـهم أودى بحياتـه فيمـا بعـد فـى 26 مـارس 1199.

اختلفـت الروايـات حـول تصرفـات ريتشـارد قلـب الأسـد وأفعالـه، اختلـف الآراء فيـه فهنـالك مـن يمتدحـه ويبـالغ فـى المديـح وهنـاك مـن يـرى أن أعمالـه اتسـمت بالسـلب والنهـب والقسـوة والتعطـش للدمـاء. ولا يوجـد مـا يشـفع لوصفـه بأنـه "كـان جنديـاً رائعـاً وفارسـاً شـهماً" فهـو لـم يحقـق كبـير نجـاح فى حملته. وفشـل فـى تحقيـق هدفـه الأكـبر وهـو اسـتعادة بيـت المقـدس. لقـد خـدم التجـار أكـثر ممـا خـدم الـرب، فلـم تكـن هـذه الحـروب عمـلاً فـى خدمـة الـرب، او مـن أجـل طاعتـه. لذلـك فـإن "مملكـة بيـت المقـدس الفرنجيـة، والتـى تحولـت إلى

مملكة عكا" كانت مملكة بحرية خالصة ضمت أراضي ومدن ساحلية فقط، ومقطوعة الصلة بداخل فلسطين.

كانت مملكة "عكا التي قامت نتيجة لاعتداءات وحروب الحملة الثالثة، وعلى رأسها ريتشارد قلب الأسد بصفة خاصة، كانت "دويلة" صغيرة، عرضها عشرة أميال وطولها حوالى 90 ميلا وبذلك لم تنجح هذه الحملة سوى في انتزاع جزء صغير من حطام الإمارات الفرنجية في الشرق. لكن هذا الجزء مع طرابلس وإنطاكية "أضحى بمنجى من الخطر". لماذا؟ لماذا عاشت مملكة عكا أطول مما عاشت مملكة بيت المقدس، فقد عاشت الأخيرة سبعة وثمانين عاما (1100 إلى 1187) في حين استمرت الأولى مائة عام كاملة أى من 1191 إلى 1291؟، حين تم القضاء على آخر المعاقل الفرنجية.

كانت دويلة عكا أكثر اعتماداً وارتباطاً بدول غرب أوروبا مما كانت عليه المملكة الأولى. فقد اعتمدت أساساً في الدفاع عن كيانها، على الحماية التي وفرتها لها الأساطيل الإيطالية، أساطيل تجار جنوة وبيزا وغيرهما أجادت هذه الأساطيل في القتال والدفاع وحماية مصالح مالكيها أكثر مما أجاد فرسان المعبد وفرسان الهيكل في الدفاع عن الأهداف التي كانت الكنيسة الغربية تقول أنها تدعو إليها في هذه الحروب.

◎ تحصين القدس

أما الناصر صلاح الدين، الذى اضطرته الظروف إلى توقيع "صلح الرملة" وهو غير راغب فيه، فقد أبدا روحاً إنسانية متسامحة بترفع ونبل في تنفيذه لما اتفق عليه. أحسن إلى الحجاج وفتح لهم الأبواب، وحاول الانصراف إلى الاهتمام بشئون الدولة وأوضاعها التي شغلته الحرب عنها،

مما أدى إلى إطلاق أيدى الأمراء فى التسلط على العباد، وارتكاب المظالم، وكان القاضى الفاضل، وزيره ومستشاره السياسى قد نبهه إلى وقوع هذه الخطايا ودعاه إلى إصلاحها والقضاء عليها كما دعاه إلى الاهتمام بالقدس وتحصينه وتعمير المسجد الأقصى.

ويروى أحد الرحالة العرب كيف شاهد صلاح الدين يشرف بنفسه بل يشارك فى تحصين القدس، فيقول: "وأول ليلة حضرته فى القدس" وجدت مجلساً حفلاً بأهل العلم، يتذاكرون فيه أصناف العلوم، وهو (صلاح الدين) يحسن الاستماع والمشاركة ويأخذ فى كيفية بناء الأسوار وحفر الخنادق. ويتفقه فى ذلك، ويأتى بكل معنى بديع وكان مهتماً ببناء سور القدس وحفر خندقه، يتولى ذلك بنفسه وينقل الحجارة على عاتقه، ويتأسى به جميع الناس الفقراء والأغنياء والأقوياء والضعفاء، حتى الكاتب والقاضى الفاضل، ويركب لذلك قبل طلوع الشمس إلى وقت الظهر، ويأتى داره ويمد الطعام ثم يستريح.

بعد أن اطمأن صلاح الدين على وضع القدس قام بجولة واسعة فى مدن الشام الفلسطينية واللبنانية، تفقد خلالها نابلس وبيسان، وطبرية، وصفد، ومرجعيون، ووصل إلى بيروت فى آخر أكتوبر 1192 التى استقبل فيها بوهيموند الثالث أمير إنطاكية وبالغ فى "احترامه وإكرامه ومباسطته" وكان بوهيموند قد أقر صلح الرملة ووافق عليه.

وفى ختام جولته، وصل صلاح الدين إلى دمشق، أو عاد إليها بعد غيبة طالت أربع سنوات. مرة أخرى بل أخيرة كانت عاصمته على موعد معه فتحت زراعيها له فها هو يعود إليها بعد أن استرد لها القدس، فإذا

كانت هذه المدينة، مدينة الأقصى والصخرة والقيامة، لها صدى وأثر فى كل مدينة عربية وإسلامية أخرى، فإن علاقتها بدمشق وعلاقة دمشق بها ذات طابع خاص، حتى تبدو دمشق وكأن قلبها ينبض فى القدس. لذلك استقبلت دمشق "محرر القدس" الاستقبال اللائق به، وبالعلاقة الخاصة التى تربطها بالمدينة التى حررها. وكان هذا التحرير يكفيه فخراً وشرفاً، خاصة وأن أوروبا التى تكالبت عليه لم تستطع انتزاع هذا الشرف منه. ولعل خشيته من انتزاع درة أعماله من بين يديه، كانت أحد دوافعه إلى الصلح الذى لم ير منه بدا. ويروى "ابن شداد أن صلاح الدين قال له وهو يحاوره بشن الصلح: إنه يخشى أن يتوفى بعد أن يصالح فيقوى هذا العدو وقد بقى لهم هذه البلاد فيخرجوا لاستعادة بقية بلادهم، وترى كل واحد من هؤلاء الجماعة قد قعد فى رأس تله (يعنى حصنه)".

قضى صلاح الدين فى دمشق منذ عاد إليها أربعة أشهر، واشتد عليه المرض خلالها أحد عشر يوم. وكان مرضه فى رأسه، صداع شديداً من تأثير الحمى، ووافته المنية فى أوائل مارس سنة 1193.

يصف ابن شداد يوم رحيل صلاح الدين فيقول:

"كان يوماً لم يُصب المسلمون والإسلام بمثله منذ فقد الخلفاء الراشدون. وغشى القلعة والبلد والدنيا من الوحشة ما لا يعلمها إلا الله تعالى وبالله لقد كنت أسمع من بعض الناس أنهم يتمنون فداء من يعز عليهم بنفوسهم، وما سمعت هذا الحديث إلا على درب من التجوز والترخص إلا ذلك اليوم، فإنى علمت من نفسى ومن غيرى أنه لو قبل الفداء لفدى بالنفس".

بكى الناس صلاح الدين واستحق أن يبكوه. ولكن ذكراه بقيت

حية، ولا يزال قبره قرب المسجد الأموى في دمشق مزاراً ورمزاً على صفحة مجيدة من النضال ضد المُعتدين والجهاد ضد الغزاة. .. صفحة اختلف حقاً ما بعدها عما قبلها.

✠ ✞ ✠

المحتوى

صفحات من تاريخ الحروب الصليبية